آيات العقائد في سورة الأعلى

دراسة تحليلية

الدكتور / عبد العزيز رشيد الأيوب

الأستاذ المشارك في كلية التربية الأساسية

التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي

والتدريب بدولة الكويت (باحث رئيسي)

الدكتور / احمد يوسف النصف

الأستاذ المشارك في كلية التربية الأساسية التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بدولة الكويت

(باحث مشارك)

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة آيات العقائد في سورة الأعلى؛ لكونها حوت جلّ كبار مسائل العقيدة الإسلامية، فنجد في أولها تقرير للتوحيد، وفي أوسطها تقرير للنبوة، وفي آخرها تقرير للمعاد.

وقد شرعنا أولًا في البحث في حصر آيات العقائد كلها في هذه السورة المباركة، وبيَّنَّا دلالة هذه الآيات على المسائل العقدية التي تنتظمها، وبعدها شرعنا في شرح ودراسة هذه المواضع بالتفصيل.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون البحث مكونًا من: مقدمة، وتمهيد، وموضوع البحث ذاته، وخاتمة، ثم أهم نتائج البحث، ثم قائمة المصادر والمراجع.

ومن أهم نتائج البحث:

- ذكرت هذه السورة جُلّ كبريات آيات العقائد الإسلامية، فهي مشتملة على كل ما يحتاج الإنسان إليه في معرفة المبدأ، ومعرفة صفات الأنبياء عليهم السلام، ومعرفة أحوال النفس، ومعرفة الآخرة.

- اشتملت هذه السورة على تنزيه الله تعالى، والإشارة إلى وحدانيته؛ لانفراده بخلق الإنسان، وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيته على تلقّي الوحي، وأن الله معطيه شريعة سمحة، وكتابًا يتذكّر به أهل النفوس الزكية.

- أن الله تعالى أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون.

- أن الأمر بالتسبيح في هذه السورة بشارة إجمالية للنبي صلى الله عليه وسلم بخيرٍ يحصل له، فهذا موقع البيان الصريح بوعده بأنه تعالى سيعصمه من نسيان ما يقرئه، فيبلغه كما أوحى إليه، ويحفظه من التفلت عليه.

Abstract:

This research aims at studying the verses of the beliefs in Surat Al-A'al; because it is the whale of most of the issues of Islamic faith, we find in the first a report of unification, in the middle of it a report of the prophecy, and the most recent of which is a report of the return.

We have first begun to research the inventory of the verses of all faiths in this blessed Sura, and we have shown the significance of these verses on the doctrinal issues that we organize, and then we began to explain and study these places in detail.

The nature of the research required that the research be composed of: introduction, preface, research topic itself, conclusion, and then the main results of the search, then the list of sources and references.

The most important results of the research:

- This Sura has organized most of the major verses of the Islamic faiths. It contains all that the human needs to know about the principle, and to know the qualities of the prophets peace be upon them, and to know the conditions of the soul and knowledge of the Hereafter.

The Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) supported the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) and placed him on receiving the revelation, and that God gives him a shariah and a book that is remembered by the people of the righteous souls .

- that God is higher and longer and greater than all described by the descriptors, and every male reminded by the memory.

- The command of praise in this surah is a total gospel of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) and it is good for him. This is the site of the explicit statement, with his promise that he will protect him from forgetting what he is reading.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة

الحمد لله الذي جعل الحمد مُفْتَتَحَ قرآنه، وآخر دعوى أهل جِنانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله، أرسله بالنور المبين والحق اليقين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون، وأجل ما يتنافس فيه المتنافسون هو دراسة كتاب الله تعالى، ومواصلة البحث فيه، والتعمق في الكشف عن علومه وحقائقه، وإظهار إعجازه، وتجلية محاسنه، والدفاع عنه بنفي الشكوك والريب فيه؛ فالقرآن الكريم بحرٌ لا يدرك غوره، ولا تنفذ دُرره، ولا تنقضي عجائبه، فما أحق الأعمار أن تفنى فيه، والأزمان أن تشغل به، وكل ساعة يقضيها الباحث في النظر في كتاب الله، والتأمل فيه، أو في البحث فيما يتصل به، فهو في سبيل الله تعالى ونصرةٍ لدينه.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وهو في كل ذلك حكيمٌ كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف ولا تناقض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

لذا مَن عَلِمَ معاني القرآن نصًّا واستنباطًا، استحق الإمامة في الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللَّهِ، فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ»[2].

ولقد توجَّهت همَّتنا إلى دراسة آياتِ العقائد في سورة الأعلى؛ لكونها حوت جل كبار مسائل العقيدة الإسلامية، فنجد في أولها تقريرًا للتوحيد، وفي أوسطها تقريرًا للنبوة، وفي آخرها تقريرًا للمعاد. وقد أسمينا هذا البحث: "آيات العقائد في سورة الأعلى -دراسة تحليلية-".

---

(1) سورة النساء: (٨٢).
(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (٢٥١/١)، برقم: (٣٧٦)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٧٤١/١)، برقم: (٢٠٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأخرجه البيهقي في السنن الصغير (٣٣٣/١)، برقم: (٩٤٣).

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

أما المقدمة، فجاءت لبيان سبب اختيار هذا البحث، كما تقدم بيانه.

وأما التمهيد، فقد جاء في الكلام عن سورة الأعلى، هل هي مكية أم مدنية؟ وتسميتها، وفضلها، ومقاصدها العامة.

وأما مباحث البحث، فهي ما يلي:

المبحث الأول: في حصر القضايا العقدية التي في سورة الأعلى.

المبحث الثاني: في الكلام عن إثبات وجود الله تعالى.

المبحث الثالث: في تقرير النبوّات.

المبحث الرابع: في تقرير أمر المعاد .

وأما الخاتمة، فقد تضمّنت أهم نتائج البحث.

تمهيد

في الكلام عن سورة الأعلى

لا: هي سـ مكية:

لا خلاف بين جماهير المفسرين والقراء في أن سورة الأعلى سورة "مكية"، وأنها من أوائل ما نزل من القرآن؛ وعن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: أنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر، أي: فهما مدنيَّتان، فتكون السورة بعضها "مكي"، وبعضها "مدني"؛ وعن الضحاك أن السورة كلها "مدينة"[1].

ورُدّ على القول الأخير بما جاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: "أول مَن قدِمَ علينا[2] مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدِمَ بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدِمَ عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قدِمَ النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيتُ أهل المدينة فرِحُوا بشيءٍ فَرَحَهُم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جعل الإماء يَقُلْنَ: قدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فما قدِمَ حتى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ من المفصَّل"[3].

وأشار بعض العلماء إلى أن ذكر العيد والفطر في سورة الأعلى غير مُسَلَّم، ولو سُلِّم فلا دلالة فيه على ذلك، وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها "مكية"، وحسبك بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾[4].

ثانيًا: ما ورد في تسميتها:

وَرَدَ تسميتها في السنة النبوية بسورة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذًا يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ، فقرأ بسورة البقرة -أو النساء-، فانطلق الرجل وبلغه أنَّ معاذًا نال منه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فشكا إليه معاذًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا مُعَاذُ، أفَتَّانٌ أنْتَ» -أوْ «أفَاتِنٌ»- ثَلَاثَ مِرَارٍ: «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَى، فَإنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ»[5].

---

(1) انظر: المحرر الوجيز (٤٦٨/٥)، التحرير والتنوير (٢٧١/٣٠).

(2) يعني: إلى المدينة المنورة.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، برقم: (٣٩٢٥).

(4) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٤٨/٨).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب مَن شكا إمامه إذا طوّل، برقم: (٧٠٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، برقم: (١٧٨).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية"[1].

وعن أبيِّ بن كعب رضي الله عنه، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبِّح اسم ربك الأعلى"[2].

وسمَّاها كلٌّ من: ناصر الدين البيضاوي في تفسيره (٦٨٥هـ)[3]، والحافظ ابن كثير الدمشقي في تفسيره (٧٧٤هـ)[4] بسورة: "سبِّح"؛ لأنها اختصت بالافتتاح بكلمة: "سبِّح" بصيغة الأمر؛ وسمَّاها أكثر المفسّرين وكُتَّاب المصاحف: بـ«سورة الأعلى»؛ لوقوع صفة الأعلى فيها لله جلَّ شأنه دون غيرها[5].

ثالثا: ما في فضلها:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لـمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال صلى الله عليه وسلم: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، ولـمّا نزل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال صلى الله عليه وسلم: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم»[6].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَعْلَى، أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، عَدَدَ كُلِّ حَرْفٍ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ»[7].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾"[8].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين اللّتين يوتر بعدهما: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾"[9].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، برقم: (٦٢).
(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب الصلاة، باب كيف الوتر بثلاث، برقم: (٤٤٦).
(٣) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣٥٥/٥).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣٨٣/٨).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (٢٧١/٣٠).
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، برقم: (٨٦٩)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، برقم: (٨٨٧). قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٧٥/٣٠): "وقد جعل من قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ دعاء السجود في الصلاة؛ إذ ورد أن يقول الساجد: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى"؛ ليقرن أثر التنزيه الفعلي بأثر التنزيه القولي".
(٧) أورد هذه الرواية: الثعلبي في الكشف والبيان (١٨٢/١٠) عن أبيِّ بن كعب رضي الله عنه.
(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٢/٢)، برقم: (٧٤٢).
(٩) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، باب ما يقرأ في الوتر بعد الفاتحة، برقم: (٤٨٥٢).

قال محيي الدين النووي (٦٣١ه): "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبُّها؛ لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات"[١].

بعض مقاصدها العامة

قد اشتملت سورة الأعلى على:

تنزيه الله تعالى، والإشارة إلى وحدانيَّته؛ لانفراده بخلق الإنسان، وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيته على تلقِّي الوحي.

وأنَّ الله معطيه شريعة سمحة، وكتابًا يتذكَّر به أهل النفوس الزكية الذين يخشون ربهم، ويعرض عنه أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدنيا ولا يعبأون بالحياة الأبدية.

وأنَّ ما أوحي إليه يصدِّقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كله تهوين لِـمَا يلقاه مِن إعراض المشركين[٢].

---

(١) نقلًا عن السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٥١٩/٤).

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٠/١٠).

المبحث الأول

حصر القضايا العقدية التي في سورة الأعلى

في هذه السورة آياتٌ عدة تُعْنَى بالقضايا العقدية، فهي مشتملة على مطالب ثلاثة رئيسة، وهي ما يلي[1]:

المطلب الأول: في إثبات الإله جلَّ وعلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾، حيث دلَّت الآيات الكريمات على تمام أصول الدين، بالدلالة على وجوده سبحانه، والكلام عن أسمائه وصفاته وأفعاله تعالى.

والمطلب الثاني: في تقرير النبوات، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾.

والمطلب الثالث: في تقرير أمر المعاد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾.

ونشير هنا إلى أنه تعالى لـمَّا قرَّر هذه المطالب الثلاثة، ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾، ومعناه: أنَّ جميع كتب الله المنزلة ليس المقصود منها إلا تقرير هذه المطالب الثلاثة، وهي معرفة الإلهيات أولًا، ثم معرفة النبوات ثانيًا، ثم معرفة المعاد ثالثًا، وقد كانت ثابتة في صحف الأنبياء الأقدمين؛ لأنها قواعد كلية لا تتغيّر بتغيُّر الأزمان، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾[2][3].

قال فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ): "واعلم أنَّ التأمل في أسرار هذه السورة ينبِّه على أن الاشتغال بما سوى هذه المطالب الثلاثة، عيب، وأنَّ سعادة حال الإنسان لا تحصل إلا بمعرفة هذه المطالب الثلاثة"[4].

وفي المباحث القادمة سنتناول القضايا العقدية في سورة الأعلى بالشرح والتوضيح، وبيان صلتها بالعقيدة، وما دار حولها مِن نقاش، وأثير حولها مِن جدلٍ وبحث، سائلين المولى عزَّ وجلَّ السداد والهدى.

---

(1) الأسرار المودعة ص (٥٢).
(2) سورة الشعراء: (١٩٦).
(3) الأسرار المودعة ص (٥٢).
(4) الأسرار المودعة ص (٥٢).

المبحث الثاني

إثبات وجود الله تعالى

قال الله تعالى قبل هذه السورة: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[1]، فكأنَّ قائلًا قال: مَن خلقه على هذا المثال؟ فقيل هنا: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾. وأيضًا لَمَّا قال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[2]، قيل له هنا: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي: ذلك القول الفصل.

فنلاحظ أنَّ المطلب الأول مِن مطالب هذه السورة قد جاء لإثبات الإله جلَّ وعلا، وقد جرت العادة في القرآن الكريم أنْ يقع الابتداء بتقرير الإلهيات، ثم يقع الشروع في تقرير النبوات. وفي هذه السورة بدأ ربنا بالإلهيات، فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، أي: اذكر توحيد ربك الأعلى. وقيل: عظِّم يا محمد اسم ربك. وقيل: عظِّم ربك الأعلى. فالباري أعلى مِن مناسبة جميع الممكنات، ومشابهة كل المحدَثات؛ لأنها مركبة من المادة والصورة باعتبار، ومن الجنس والفصل باعتبارٍ آخر، ولأنها قابلة للتغيُّر والفناء، إما في الذات، وإما في الصفات؛ فهو سبحانه أعلى مِن كل هذه الأشياء في كل هذه الصفات[3].

وقيل: إن الخطاب عامٌّ لكل أحد، أو هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمَّته تبع له[4].

ونستنتج من هذه الآية الكريمة بعض المسائل العقدية، وهي ما يلي:

المسألة الأولى: أنه قد جاء في قوله جلَّ وعلا: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، قولان[5]:

القول الأول: إن المراد: الأمر بتنزيه اسم الله عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة، وعن إطلاقه على غيره بوجهٍ يشعر بالاشتراك فيه. ويجوز أن يكون معناه: نزِّه ذات ربك عمَّا لا يليق به؛ لأن الاسم والذات والنفس عبارة عن الوجود والإثبات.

القول الثاني: إن {اسم} صلة، و{الأعلى} صفة للرب؛ ويكون المراد: الأمر بتنزيه الله تعالى عن السوء والآفات.

وعلى القول الأول، فإنَّ في اللفظ احتمالات، منها[6]:

---

(1) سورة الطارق: (٥).
(2) سورة الطارق: (١٣).
(3) انظر:بحر العلوم (٥٧٠/٣)، المطالب العالية (١٠٩/٨)، تفسير السمعاني (٢٠٦/٦).
(4) انظر: غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (٣٧١/١).
(5) انظر: معاني القرآن (٣١٥/٥)، تأويلات أهل السنة (٥٠٠/١٠)، تفسير ابن فورك (١٩٩/٣)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٨٢/١٠)، الهداية في بلوغ النهاية (٨٢٠٣/١٢)، غرائب التفسير (١٣٣٩/٢)، مفاتيح الغيب (١٢٥/٣١)، إرشاد العقل السليم (١٣٤/٩)، جامع البيان في تفسير القرآن (٤٧٦/٤).
(6) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٥/٣١)، مدارك التنزيل (٦٣٠/٣)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٧٣/٢)، اللباب في علوم الكتاب (٢٧٣/٢٠)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (٣٩٠/١٦)، البحر المديد (٢٨٥/٧).

١- أن المراد: نَزِّه اسم ربك عن أن تُسمِّي به غيره، فيكون ذلك نهيًا عن أن يُدْعَى غيره باسمه، كما فعل المشركون مِن تسميتهم آلهتهم باللّات والعُزّى، جعلوا العُزَّى مشتقة مِن العزيز، واللَّات مِن الله؛ ومسيلمة الكذاب كان يُسمِّي نفسه برحمان اليمامة. قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، فلا يُقال لغيره تبارك وتعالى: ربٌّ وإله.

٢- أن لا تُفسَّر أسماؤه بما لا يصح ثبوته في حقه سبحانه، نحو: أن يُفسَّر "الأعلى" بالعلو في المكان؛ بل يُفسَّر العلو: بالقهر والاقتدار، أو تعاليه عن سمة الحدوث وعن مدارك العقول، فلا يحيط به وصف واصفٍ أو علم عارف.

٣- أن تُصان أسماؤه عن الابتذالِ والذِّكْر لا على وجه الخشوع والتعظيم؛ ويدخل فيه: أن تُذكر تلك الأسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها، وأن لا تُذكر على وجهِ الاستخفاف، ولا في محلٍّ لا يليق به، كالخلاء وحالة التغوُّط.

٤- أن تُمَجَّد أسماؤه التي أنزلها، فمعنى قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، أي: صَلِّ باسم ربك، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وأن لا يُذكر إلا بما ورد به التوقيف.

وعلى القول الثاني -وهو أن يكون الاسم: صلة، ويكون المعنى: سبّح ربك، وهو اختيار جمع مِن المحقّقين-، يكون معناه: نَزِّهْهُ تعالى عن جميع المعاني التي يحتملها غيره من الآفات والحاجات والأضداد والأنداد؛ فيكون القول به توحيدًا؛ لأن الاسم في الحقيقة لفظة مؤلَّفة من حروف، ولا يجب تنزيهها كما يجب في الله تعالى، ولكن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو، بل يذكر اسمه، فيقال: "سبّح اسمه، ومجّد ذكره".

قال مقاتل بن سليمان: تأويله: وَحِّدْ ربك. وقال بعض المفسرين: تأويله: أنْ صَلِّ لربك، وهذا محتمل؛ لأن الصلاة بنفسها تسبيح؛ لأنه بالافتتاح بها يقطع وجوه المعاملات بينه وبين الخَلق، ويمنع نفسه عن حوائجها فيجعلها لله تعالى، وهذا هو التوحيد والإيمان؛ لأنه بالإيمان يجعل الأشياء كلها لله تعالى سالمة، فصارت الصلاة تسبيحًا لعينها، لا للتسبيح المجعول فيها.

وعلى هذا الوجه، يحتمل تسبيحُ الله تعالى وجهين[1]:

الأول: أن لا يعامل الكفار معاملةً يُقْدِمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغي، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2].

الثاني: أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وأحكامه. أما في ذاته: فأن يُعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض. وأما في صفاته: فأن يُعتقد أنها ليست محدَثة ولا متناهية ولا ناقصة. وأما في أفعاله: فأن يُعتقد أنه مالكٌ مطلق، فلا اعتراض لأحدٍ عليه في أمرِ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٥/٣١)، السراج المنير (٥١٩/٤).
(٢) سورة الأنعام: (١٠٨).

من الأمور. وأما في أسمائه: فأن لا يذكر الله إلا بالأسماء التي ورد التوقيف بها - كما هو مقررٌ عند أهل السنة والجماعة-. وأما في أحكامه: فهو أن يُعلم أنه ما كلَّفنا لنفع يعود إليه.

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري (٣١٠هـ): "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول مَن قال: معناه: نزِّه اسم ربك أن تدعو به الآلهة والأوثان؛ لِمَا ذكرت من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرئوا ذلك قالوا: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى"، فبيّن بذلك أن معناه كان عندهم معلومًا: عَظِّمْ اسم ربك ونَزِّهْهُ"[١].

المسألة الثانية: في إفادة "الأعلى" الارتفاع والعلو.

"الأعلى" يفيد الزيادة في صفة العلو، أي: الارتفاع؛ والارتفاع معدودٌ في عرف الناس مِن الكمال، فلا ينسب العلو بدون تقييدٍ إلا إلى شيءٍ غير مذمومٍ في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضل عليه أفاد التفضيل المطلق كما في وصفه تعالى في سورة الأعلى. ولهذا حُكِيَ في القرآن الكريم عن فرعون أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[٢][٣].

ونلفت النظر في هذا المقام إلى أن قوله تعالى: ﴿الْأَعْلَى﴾ ظاهره يقتضي أن يكون هناك أدون وأسفل، وكذلك قول: "الله أكبر" ظاهره يقتضي الأصغر، ولكن معنى قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ عند أهل السنة: أنه أعلى مِن أن تمسّه حاجة أو تلحقه آفة، وكذلك هذا في الأكبر، ويكون الأكبر والأعلى في النهاية عن تنزيه المعاني التي ذكرنا، وهو كقولك: هو أحسن وأجمل، فإذا قلتَ: أحسن وأجمل، أردتَ به النهاية في الحسن والجمال. أو يكون "الأعلى" بمعنى العلي، و"الأكبر" بمعنى: الكبير، وذلك جائزٌ في اللغة[٤].

المسألة الثالثة: مِن الناس مَن تمسَّك بهذه الآية في أنَّ الاسمَ نفسُ المسمَّى:

ولا بدَّ هاهنا من بيان أن الاسم ما هو؟ والمسمّى ما هو، حتى يمكننا أن نخوض في الاسم: هل هو نفس المسمَّى، أم لا[٥]؟

فإن كان المراد من الاسم: هو هذا اللفظ، وبالمسمَّى: تلك الذات، فالعاقل لا يمكنه أن يقول: الاسم هو المسمّى. وإن كان المراد من الاسم: هو تلك الذات، وبالمسمَّى أيضًا: تلك الذات، كان قولنا: "الاسم نفس المسمَّى" هو أن تلك الذات نفس تلك الذات، وهذا لا يمكن أن يُنازع فيه عاقل.

قالوا: الذي يدل على أن الاسم نفس المسمَّى: أن أحدًا لا يقول:"سبحان اسم الله، وسبحان اسم ربنا"، فمعنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾: سبِّح ربك، والربُّ أيضًا اسم،

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٦٧/٢٤).
(٢) سورة النازعات: (٢٤).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧٤/٣٠).
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠١/١٠).
(٥) انظر ما يأتي من تحقيق في هذه المسألة: في كتاب مفاتيح الغيب (١٢٦/٣١).

فلو كان غيرَ المسمّى، لم يجز أن يقع التسبيح عليه؛ قال محيي السنة البغوي: "ويحتج بهذا مَن يجعل الاسم والمسمّى واحد؛ لأن أحدًا لا يقول: سبحان اسم الله، وسبحان اسم ربنا، إنما يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا"[1].

وهذا الاستدلال ضعيفٌ؛ لأنه يمكن أن يكون الأمر واردًا بتسبيح الاسم، ويمكن أن يكون المراد: تسبيح المسمَّى، وذكر الاسم صلة فيه. ويمكن أن يكون المراد: سبِّح باسم ربك، كما يقال: فسبِّح باسم ربك العظيم، ويكون المعنى: سبِّح ربك بذكر أسمائه.

فالتسمية إذن: هي اللفظ الدالُّ على المسمَّى، والاسم: هو المعنى المسمّى به؛ كما أن الوصف قد يُطلق ويراد به: اللفظ، كذلك الاسم يُطلق ويراد به: المسمَّى، إطلاقًا لاسم الدالِّ على المدلول، وعليه اصطلحت النحاة[2].

قال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) محاولًا التوفيق بين الأقوال: «وما ذُكِرَ من الخلاف في أن "الاسم" هل هو "المسمّى" أو"غيره"؟ فقولان، قالوا: هما بنظرين مختلفين، وكلاهما صحيحٌ بنظر ونظر؛ وذاك أنَّ مَن قال: الاسم-الذي هو زيد أو عمرو- هو المسمَّى، فإنما نظر إلى نحو قولهم: رأيتُ زيدًا، وزيدٌ رجلٌ صالح، فإن زيدًا -هاهنا- عبارة عن المسمَّى، والرؤية تعلَّقت به. ومَن قال: هو غير المسمَّى، فإنه نظر إلى نحو قولهم: سميتُ ابني زيدًا، وزيدٌ اسمٌ حَسَن، فإنه عني أني سمَّيتُ ابني بهذا اللفظ، وأن هذا اللفظ محكومٌ عليه بالحسن؛ فإذن: قولك: زيدٌ حسن، لفظٌ مشتركٌ يصح أن يعني به أن هذا اللفظ حسن، وأن يعني به أن المسمَّى به حسن. ونحو هذا الاشتباه في قولك: هذا إنسان، فإنه يستعمل على ضربين: أحدهما: أن يُختلف أو يُشك في اسمه، فيُقال: هذه إنسان، أي: اسمه إنسان. والثاني: أن يختلف أو يشك في جوهره، فيقال: هذا إنسان، أي: جوهرة الإنسانية. وكثير من المواضع مثل هذا يقع فيه المغالطة. وأما تصوّر مَن قال: لو كان الاسم هو المسمَّى، لكان مَن قال: "النار"، أحرقت فمه، فهو بعيد؛ فإن عاقلًا لا يقول: إنَّ زيدًا الذي هو "زاي، وياء، ودال" هو الشخص»[3].

المسألة الرابعة: "الأعلى" إما صفة للرب أو للاسم، وهو من الأسماء المشعرة بالجسمية والجهة، فهو من الألفاظ المشتقة من "العلو"؛ ومنها كذلك: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[4]؛ ومنها كذلك: "المتعالي"؛ ومنها كذلك: "تعالى"، وهو اللفظ المذكور عند الكل على سبيل الإطباق، حيث إنهم كلما ذكروا مولاهم أردفوا ذلك الذكر بقولهم: "تعالى"، قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5]. والقائلون بأنه في الجهة والمكان قالوا: معنى علوه وتعاليه: كونه

---

(1) انظر: معالم التنزيل (٣٩٦/٨).
(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٦/٣١).
(3) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٤٧/١).
(4) سورة البقرة: (٢٥٥).
(5) سورة النحل: (١).

موجودًا في جهة فوق، ثم هؤلاء منهم مَن قال: إنه جالسٌ فوق العرش، ومنهم مَن قال: إنه مباينٌ للعرش ببُعْدٍ متناهٍ، ومنهم مَن قال: إنه مباينٌ للعرش ببُعْدٍ غير متناهٍ؛ وكيف كان فإن هؤلاء قد حملوا لفظ "العلي" على العلو في المكان والجهة، وأما أهل التنزيه والتقديس، فإنهم حملوا "العلو" على كونه منزهًا عن صفات النقائص والحاجات. وهذا اللفظ من أسماء الصفات عند أهل السنة وعند المشبِّهة، إلا أنه عند المشبّهة يفيد الحصول في الحيِّز الذي هو العلو الأعلى، وعند أهل التوحيد يفيد كونه منزهًا عن كل ما لا يليق بالإلهية[1].

ونأتي إلى شيءٍ من التفصيل، فنقول: تمسَّكت المشبِّهة في إثبات العلو بالمكان بقوله تعالى في بداية السورة: ﴿رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، والحقُّ -كما قال أهل السنة- أن العلو بالجهة على الله تعالى محالٌ؛ لأنه تعالى إما أن يكون متناهيًا أو غير متناهٍ: فإن كان متناهيًا، كان طرفه الفوقاني متناهيًا، فكان فوقه جهة، فلا يكون هو سبحانه أعلى من جميع الأشياء. وأما إن كان غير متناهٍ، فالقول: بوجود أبعادٍ غير متناهيةٍ، محالٌ. وأيضًا فلأنه إن كان غير متناهٍ من جميع الجهات يلزم أن تكون ذاته تعالى مختلطة بالقاذورات -تعالى الله عن ذلك-. وإن كان غير متناهٍ من بعض الجهات، ومتناهيًا من بعض الجهات، كان الجانب المتناهي مغايرًا للجانب غير المتناهي، فيكون مركبًا من جزأين، وكلٌّ مركبٍ ممكنٌ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود، وهذا محالٌ. فثبت أن العلو هاهنا ليس بمعنى العلو في الجهة[2].

ومما يؤكد ذلك: أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ينافي أن يكون المراد: هو العلو بالجهة. أما ما قبل الآية: فإن كان العلو عبارة عن كونه في غاية البعد عن العالَم، فهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم، وإن كان العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع، فيناسب ذلك. والسورة هاهنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم. وأما ما بعد هذه الآية: فلأنه أردف قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾، بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة، لا العلو بحسب الجهة[3].

قال أبو عبد الله القرطبي المفسر (٦٧١): "وسمعتُ بعض أشياخي يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ هو تفسير العلو الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته"[4].

المسألة الخامسة: "التسبيح": هو التنزيه لله عزَّ وجل عما لا يجوز في صفته إلى صفات التعظيم له، كوصفه بأنه لا إله إلا هو، فينفي ما لا يجوز في صفته

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٤/١). وقال المتكلم ابن فورك في تفسيره (١٩٨/٣): "الأعلى: القادر الذي لا قادر أقدر منه، وصفته الأعلى منقولة إلى معنى الأقدر، حتى لو بطل معنى علو المكان، لم يبطل أن يفهم بتحقيقها."

(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٧/٣١).

(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٧/٣١).

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠).

من شريكٍ في عبادته، مع الإقرار بأنه إله وحده، فهو تبعيد الله تعالى من السوء. وكذا المراد بـــ"التقديس"، فهو: مِن سَبَحَ في الماء وقدس في الأرض؛ إذا ذهب فيها وأبعد. والتسبيح إن أريد به التبعيد عن السوء فيدخل فيه: التبعيد عن السوء في الذات والصفات والأفعال.

أما في الذات: فأن لا تكون محلًّا للإمكان، فإن السوء هو العدم وإمكانه، ثم نفي الإمكان يستلزم نفي الكثرة، ونفيها يستلزم نفي الجسمية والعرضية، ونفي الضد والند وحصول الوحدة المطلقة.

وأما في الصفات: فأن يكون منزهًا عن الجهل، بأن يكون محيطًا بكل المعلومات، ويكون قادرًا على كل المقدورات، وتكون صفاته منزهة عن التغيرات.

وأما في الأفعال: فأن تكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال، لأن كل مادة ومثال فهو فعله، لِمَا بيَّنه أهل السنة من أن كل ما عداه جلَّ وعلا فهو ممكن، وكل ممكن فهو فعله، فلو افتقرت فاعليته إلى مادة ومثال، لزم التسلسل، وغير موقوفة على زمان ومكان، لأن كل زمان فهو مركب من أجزاء منقضية، فيكون ممكنًا، وكل مكان فهو يعد ممكن مركب من أفراد الأحياز، فيكون كل واحد منهما ممكنًا ومحدثًا، فلو افتقرت فاعليته إلى زمان وإلى مكان، لافتقرت فاعلية الزمان والمكان إلى زمان ومكان، فيلزم التسلسل، وغير موقوفة على جلب منفعة، ولا دفع مضرة، وإلا لكان مستكملًا بغيره، ناقصًا في ذاته، وذلك محالٌ[1].

المسألة السادسة: جاء في بعض فواتح سور القرآن الكريم: "سَبَّحَ" على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع: "يُسَبّحُ"، وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبّحة غير مختص بوقتٍ دون وقت، بل هي كانت مسبّحة في الماضي، وتكون مسبّحة في المستقبل، وذلك لأن كونها مسبّحة صفة لازمة لماهياتها، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح. وإنما قيل: إن هذه المسبحيّة صفة لازمة لماهياتها؛ لأن كل ما عدا الواجب جلَّ وعلا ممكن، وكل ممكن فهو مفتقر إلى الواجب، وكون الواجب واجبًا يقتضي تنزيهه عن كل سوء في الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء على ما بيّناه في المسألة السابقة، فظهر أن هذه المسبحيّة كانت حاصلة في الماضي، وتكون حاصلة في المستقبل[2].

المسألة السابعة: زعم بعض العلماء[3] أن المراد بهذا التسبيح: التسبيح الذي هو القول؛ واحتج عليه بوجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[4]، فلو كان المراد من التسبيح: دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه. الثاني: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ

---

(1) انظر: تفسير ابن فورك (١٩٨/٣)، مفاتيح الغيب (٤٤١/٢٩).
(2) انظر: مفاتيح الغيب (٤٤١/٢٩).
(3) وهو إبراهيم بن محمد الزجاج، المتوفى سنة: (٣١٠هـ)، وذلك في كتابه: "معاني القرآن وإعرابه" (١٢١/٥).
(4) سورة الإسراء: (٤٤).

يُسَبِّحْنَ﴾[1]، فلو كان تسبيحها عبارة عن دلالة الصنع على الصانع؛ لَمَا كان في ذلك تخصيص لسيدنا داود عليه السلام[2].

وكلامه هذا ضعيفٌ؛ لحجَّتين[3]:

أما الأولى: فلأن دلالة هذه الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها، فقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لعله إشارة إلى أقوامٍ جهلوا بهذه الدلالة.

وأما الثانية: فضعيفة؛ لأن من المحتمل أن الله تعالى خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح. أما هذه الجمادات التي تعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال: إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح، إذ لو جوَّزنا صدور الفعل المحكم عن الجمادات، لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله على كونه عالمًا حيًّا، وذلك كفر، بل الحق أن التسبيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات.

فالتسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد، لا بدَّ وأن يكون مفسرًا بأحد وجهين:

الأول: أنها تسبِّح بمعنى: أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه جل جلاله.

الثاني: أن الممكنات بأسرها منقادة له، يتصرف فيها كيف يريد، ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع.

إذا عرفنا هذه المقدمة، نقول: يحمل التسبيح المذكور في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4] على التسبيح بالقول، فإن المراد بقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ مَن في السماوات، ومنهم حملة العرش وسائر الملائكة عليهم السلام، ويُؤيِّد ذلك: قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[5].

وأما المسبِّحون الذين هم في الأرض، فمنهم الأنبياء، كما قال سيدنا ذو النون عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾[6]، وقال سيدنا موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[7].

وأما إن حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوي، فأجزاء السماوات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والنور والظلمة والذوات والصفات والأجسام والأعراض كلها مسبِّحة، خاشعة خاضعة لجلال الله، منقادة لتصرف الله، كما قال عزَّ مَن قائل: ﴿وَإِنْ

---

(1) سورة الأنبياء: (٧٩).
(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١٢١/٥)، مفاتيح الغيب (٤٤٢/٢٩).
(3) انظر: مفاتيح الغيب (٤٤٢/٢٩).
(4) سورة الحديد: (١).
(5) سورة فصلت: (٣٨).
(6) سورة الأنبياء: (٨٧).
(7) سورة الأعراف: (١٤٣).

مِنْ شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1]، وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2].

المسألة الثامنة: مِن الملحدين مَن طعن في القرآن الكريم بأنه يقتضي أن يكون للعالَم ربَّان: أحدهما: عظيم، والآخر: أعلى منه؛ أما العظيم فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وأما الأعلى منه فقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فهذا يقتضي وجود رب آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه. وهذه الشبهة -بلا شكٍّ- ضعيفة؛ لأنه ليس في الآية أن الباري تعالى أعلى من رب آخر، بل ليس فيه إلا أنه أعلى، فهو عظيم في نفسه، وأعلى وأجلّ من جميع الممكنات؛ والصفة كاشفة لا مميزة، ونظيره: وصفه بالكبير تارة وبالأكبر أخرى. والمراد بالعظم والعلو: عظم الشرف وعلو القدر، وقد قامت الحجج والبراهين العقلية على أن الصانع تعالى واحدٌ لا شريك له، فسقطت هذه الشبهة[3].

ثم إن للعلماء في هذا الموضع تأويلات[4]:

الأول: أنه تعالى أعلى وأجلّ وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، ومن كل ذِكْر يذكره به الذاكرون، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا.

الثاني: أن قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ تنبيهٌ على استحقاق الله التنزيه من كل نقص، فكأنه قال سبحانه: فإنه الأعلى، أي: فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته.

والثالث: أن يكون المراد بالأعلى: العالي، كما أن المراد بالأكبر: الكبير.

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ خمسة أوجه[5]:

١- أنه أنشأ خلقهم ثم سوَّاهم فأكملهم.

٢- أنه خلقهم خلقًا كاملًا، وسوَّى لكل جارحة مثلًا.

٣- أنه خلقهم بإنعامه، وسوَّى بينهم في أحكامه، قال الضحاك: خلق آدم فسوَّى خلقه.

٤- أنه خلق في أصلاب الرجال، وسوَّى في أرحام الأمهات.

٥- أنه خلق الأجساد فسوَّى الأفهام.

وقيل في معناها إذا رُبطتْ بالتي قبلها[6]: سبِّح الله تعالى، الذي خلقك فسوَّى خلقك؛ يعني: اليدين والرجلين والعينين، ولم يخلقك زَمِنًا ولا مكفوفًا، كما قال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[7]. وقيل: سبِّح لله الذي خلقك، وقدّر آجالك

---

(1) سورة الإسراء: (٤٤).
(2) سورة النحل: (٤٩).
(3) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٣/٦).
(4) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٧/٣١)، معالم التنزيل (٣٩٦/٨).
(5) انظر: النكت والعيون (٢٥١/٦).
(6) انظر: بحر العلوم (٥٧٠/٣).
(7) سورة غافر: (٦٤).

وأرزاقك وأعمالك، وهداك إلى المعرفة والإسلام والأكل والشرب، وسبِّح لهذا المنعم المكرم، الذي هو الأحد الصمد، قال تعالى:﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وهذه الآيات فيها استدلال بنوعين من الدلائل على وجود الصانع الحكيم[2]:

فالنوع الأول: الاستدلال بخلقة الحيوان المركَّب من بدن ونفس، فبدن كل حيوان مقدّر بمقدارٍ معين، وهذا التقدير هو الخَلق، والبدن مركَّب من أجزاء حارة وباردة ورطبة ويابسة، ويجب أن يكون كل واحد من تلك الأجزاء مقدَّرًا بمقدار معيّن حتى يتولد ذلك المزاج، فإنه لو ازدادت تلك الأجزاء أو نقصت، لكان الحادث مزاجًا آخر لا ذلك المزاج، وهذا هو التسوية المقصودة من قوله جلَّ وعلا: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

وتحتمل الآية عند بعض المتكلمين أوجهًا أربعة -مغايرة لما سبق-[3]:

الوجه الأول: أن يكون سوّاه على ما قدَّره، خلافًا لأفعال الخَلق؛ لأن الفعل مِن الخَلق يخرج مرةً سويًّا على ما قدَّر، ومرةً بخلافه.

الوجه الثاني: أن يكون سوَّى الخَلق كله في دلالة وحدانيَّته وشهادة ربوبيّته، فما مِن خَلْقٍ خَلَقَهُ إلا إذا تفكَّر فيه العاقل، دلّت خلقته على معرفة الصانع، ووحدانيَّة الرب.

الوجه الثالث: سوّاه على ما فيه مصلحته ومنفعته.

الوجه الرابع: سوَّاه على ما له خلق؛ ألا ترى أن الإنسان إذا أمِر بالركوع والسجود خلقه مِن وجهٍ يتمكَّن به مِن الركوع والسجود؛ فهذا معنى قولهم: إنه سوَّاه على ما له خلق.

وأما الاستدلال بنفس الحيوان، فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، والمعنى: أن الباري سبحانه قدَّر لكل واحدٍ من تلك الأعضاء المخصوصة قوة مخصوصة بذلك العضو، ثم جعل تلك القوة سببًا لاهتداء ذلك الحيوان بتلك القوة إلى تحصيل مصالحه ومنافعه، فعلى سبيل المثال لا الحصر: قدَّر للعين القوة الباصرة، وقدّر للأذن القوة السامعة، وقدّر للمعدة القوة الهاضمة[4].

ومن أجلِّ مظاهر التقدير والهداية: تقدير قوى التناسل للحيوان لبقاء النوع؛ فمفعول «هدى» محذوف؛ لإفادة العموم، وهو عامٌّ مخصوصٌ بما فيه قابلية الهدي، فهو مخصوصٌ بذوات الإدراك والإرادة وهي أنواع الحيوان، فإن الأنواع التي خلقها الله وقدَّر نظامها ولم يقدر لها الإدراك، مثل تقدير الإثمار للشجر، وإنتاج الزَّريعة لتجدد الإنبات، فذلك غير مراد من قوله: ﴿فَهَدَى﴾؛ لأنها مخلوقة ومقدّرة، ولكنها غير مهدية لعدم صلاحها للاهتداء، وإن جعل مفعول ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا -وهو الإنسان-

---

(1) سورة الحديد: (٣).
(2) انظر: الأسرار المودعة ص(٣٠).
(3) انظر: تأويلات أهل السنة (١٠/٥٠١).
(4) انظر: الأسرار المودعة ص(٣٠).

كان مفعول ﴿قدّرَ﴾ على وزنه، أي: تقدير كمال قوى الإنسان، وكانت الهداية هداية خاصة وهي دلالة الإدراك والعقل[1].

فالباري جلَّ وعلا قدَّر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2]، أي: جعل أجناس الأشياء - وكذا أشخاص كل نوع- بمقدارٍ معلوم، وكذا جعل مقدار كل شخص في جثته وأوضاعه وسائر صفاته -كالحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة والألوان والأشكال والطعوم والروائح والأرزاق والآجال وغير ذلك- بمقدارٍ معلوم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[3]، فهدى ووجَّه كل واحدٍ منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعًا أو اختيارًا، ويسَّره لما خلق له بخلق الميول والهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات، ولو تتبَّعنا أحوال النباتات والحيوانات لرأينا في كلٍّ منها ما تحار فيه العقول[4].

قال أحد الحكماء: كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة، وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين، فالتقدير: عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمية، وتركيبها على وجه خاص لأجله يستعد لقبول تلك القوى، والهداية: عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرًا لفعل معين، ويحصل من مجموعها إتمام المصلحة[5].

ومَن شدَّد: ﴿قدَّرَ﴾، جعله من التقدير، فمعناه: قدَّر خِلْقة كل مخلوق، وهداه إلى مصلحته. ودليله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[6]. وأما من خفَّفه، فإنه جعله من القدرة والملك، فمعناه: الذي أحاطت قدرته بكل شيءٍ، فهدى وأضل. ويجوز أن يكون من التقدير مثل الأول، كما قال سبحانه: ﴿يَبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[7][8].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ إشارة إلى ما في بدن الحيوان من عجائب، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، إشارة إلى ما نفس الحيوان من غرائب. فنبَّه سبحانه بهذين الضابطين على ما لا نهاية له من العجائب والغرائب[9].

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (٢٧٧/٣٠).
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم: (٢٦٥٣).
(3) سورة الحجر: (٢١).
(4) انظر: روح البيان (٤٠٤/١٠).
(5) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٢/٦).
(6) سورة الفرقان: (٢).
(7) سورة الإسراء: (٣٠).
(8) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٨٢٠٣/١٢).
(9) انظر: المطالب العالية (١٠٩/٨).

أما من حيث تقرير ما سبق على سبيل التفصيل، فالشروع في شرح عجائب حكمة الله في الخَلق والهداية شروع في بحرٍ لا ساحل له، إلا أننا نقول: إن الخَلق: عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية: عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأبدان، وخلق جواهر الأبدان مقدَّمٌ على إبداع القوى فيها، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[1]، فالتسوية للقالب ونفخ الروح عبارة عن إبداع القوى فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ.ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ.ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]. فظهر أن الخَلْقَ مقدَّمٌ على الهداية، ولهذا المعنى قدّم الله تعالى في الآيات السابقة الخَلق في الذِّكْر على الهداية[3].

والاستدلال على وجود الصانع بالخَلق أولًا، ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن الكريم، وهي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام، فقد حكى الله تعالى عن سيدنا الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[4]، وحكى سبحانه عن فرعون أنه لـمّا قال لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾؟ قال سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[5].

وأما سيِّد الخَلْق صلى الله عليه وسلم، فإنه أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[6]، وهذا إشارة إلى الخَلْق، ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بالْقَلَمِ﴾[7]، وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة، وأمره بذلك فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخَلْق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية[8].

وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرًا؛ لأن مشاهدة الإنسان لها واطلاعه عليها أتم، ولأن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة[9].

وقوله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يحتمل أوجهًا ثلاثة: أحدها: هداه إلى ما أحوجه إليه، فهدى العبد إلى معيشته من أين يأخذها، وهدى كل دابة إلى رزقها

---

(1) سورة الحجر: (٢٩).
(2) سورة المؤمنون: (١٢-١٤).
(3) انظر في ذلك: أسرار التنزيل وأنوار التأويل ص (٤٩٣).
(4) سورة الشعراء: (٧٨).
(5) سورة طه: (٥٠).
(6) سورة العلق: (١-٢).
(7) سورة العلق: (٣-٤).
(8) انظر في ذلك: مفاتيح الغيب (٢٤٩/١٧)، تفسير ابن كثير (٣٧٨/٨).
(9) انظر: مفاتيح الغيب (٢٤٩/١٧).

وعيشها، فعرفت كل دابة رزقها. الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿فَهَدَى﴾ معناه: هدى به. الوجه الثالث: أن تكون الهداية منصرفة إلى أمر الدين، وذلك يرجع إلى الخصوص من الخلق الذين لهم عقول مميزة؛ فيكون معناه: هدى فيمن هدى[1].

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله عمّ بقوله: ﴿فَهَدَى﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشر، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه حتى يأتي خبر تقوم به الحجة، دال على خصوصه"[2].

والنوع الثاني: الاستدلال على وجود الصانع بأحوال النبات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، ويعود السبب في تقديم الاستدلال بأحوال الحيوان على أحوال النبات في الآيات السابقة هو شرفه عليه؛ ولأن عجائب الأحوال في الحيوان أكثر، فكان أولى بالتقديم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ تعريفٌ للرب الأعلى؛ كأنه يقول: الرب الأعلى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾. قال بعض المفسرين: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته[3].

ثم ذكر هذه الأشياء التي يُعرف انقضاؤها وبدؤها وإنشاؤها وإهلاكها من المرعى وغيره؛ لأن وجه الدلالة بمعرفة الصانع بالأشياء التي يعرف بدؤها وانقضاؤها وحدوثها وفناؤها أقرب منه بالأشياء التي لم يشهد الخلق بدؤها ولا انقضاءها، وهي السماوات والأرضون؛ إذ المرء يصل إلى وحدانية الرب ومعرفة الصانع بالأشياء التي تحدث وتتغيَّر بأدنى نظرٍ وتأمل، ولا يصل إلى ذلك فيما يدوم إلا بلطائف الفكر، وفضل بصر، وزيادة تأمل[4].

وجائز أن يكون خصَّ "المرعى" بالذكر؛ لِمَا بالمراعي قوام هذا الخلق؛ لأنه لا بدَّ للبشر من الدواب والأنعام للتعيش، والدواب حياتها بالمراعي، فكان قوام الخَلْق في التحصيل بإخراج المراعي، فذكرهم هذا؛ ليستأدي منهم الشكر[5]. وقيل: خصَّ "المرعى"؛ لأنه أدل على البعث، لأنه مما ينبته الناس، وإذا انتهى تهشَّم وتفتَّت وصار ترابًا، ثم يعيده سبحانه بالماء على ما كان عليه سواء، كما يفعل بالأموات سواء من غير فرق أصلًا[6].

---

(1) انظر: الكشف والبيان (١٨٣/١٠)، تأويلات أهل السنة (٥٠١/١٠)، النكت والعيون (٢٥٢/٦)، لوامع البرهان (١٠٧٤/٢)، زاد المسير (٤٣١/٤)، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٠)، البحر المحيط (٤٥٥/١٠).

(2) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٦٩/٢٤).

(3) انظر: النكت والعيون (٢٥٣/٦)، تفسير العز بن عبد السلام (٤٤٣/٣).

(4) انظر: مفاتيح الغيب (٢٤٩/١٧).

(5) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٢/١٠).

(6) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٩٣/٢١).

وهذا الوصف "أحوى" لاستحضار تغيُّر لونه بعد أن كان أخضر يانعًا، وذلك دليل على تصرُّفه تعالى بالإنشاء وبالإنهاء. وفي وصف إخراج الله تعالى المرعى وجعله غثاءً أحوى مع ما سبقه من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام؛ إيماء إلى تمثيل حال القرآن الكريم وهدايته، وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث الذي ينبت به المرعى فتنتفع به الدواب والأنعام، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله تعالى فيها، كما يكمل المرعى ويبلغ نضجه حين يصير غثاءً أحوى، على طريقة تمثيلية مكنية رمز إليها بذكر لازم الغيث وهو المرعى[1].

وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[2].

ثم في الآية هاهنا مسألتان :

المسألة الأولى[3]: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يحتمل أن يريد به: الناس خاصة، ويحتمل أن يريد: الحيوان، ويحتمل أن يريد: كل شيء خلقه. فمَن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهًا: أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة، على ما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4]. وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[5]. وثانيها: أن كل حيوان مستعد لنوع واحدٍ من الأعمال فقط، وغير مستعد لسائر الأعمال، أما الإنسان فإنه خُلِقَ بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة، فالتسوية إشارة إلى هذا. وثالثها: أنه هُيِّأَ للتكليف والقيام بأداء العبادات[6].

وأما مَن حمله على جميع الحيوانات، قال: المراد: أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاءٍ وآلاتٍ وحواس. وأما مَن حمله على جميع المخلوقات، قال: المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات، عالِم بجميع المعلومات،

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (٢٧٨/٣٠).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب فضل مَن عَلِمَ وَعَلَّم، برقم: (٧٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، برقم: (٢٢٨٢).

(3) انظر: لطائف الإشارات (٧١٧/٣)، مفاتيح الغيب (١٢٨/٣١)، اللباب في علوم الكتاب (٢٧٤/٢٠).

(4) سورة التين: (٤).

(5) سورة المؤمنون: (١٤).

(6) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٨/٣١)، السراج المنير (٥٢٠/٤).

خلق ما أراد على وفق ما أراد، موصوفًا بوصف الإحكام والإتقان، مبرّأ عن الفسخ والاضطراب[1].

المسألة الثانية: أن قوله: ﴿قَدَّرَ﴾ يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها، كل واحد على حسبه، فقدّر السماوات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدارٍ مخصوص من الجثة والعظم، وقدَّر لكل واحدٍ منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارًا معلومًا، على ما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2][3].

أما قوله: ﴿فَهَدَى﴾، فالمراد: أن كل مزاج مستعد لقوة خاصة، وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعلٍ معين، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجهٍ خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى؛ وخلق تلك القوى في تلك الأعضاء، بحيث تكون كل قوة مصدرًا لفعل معين، ويحصل مِن مجموعها تمامُ المصلحة[4]. واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَهَدَى﴾ على أقوال، وعند التأمل في هذه الأقوال على كثرتها، نجدها لا تخرج عن قسمين: أنه يُحمل على ما يتعلَّق بالدين، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[5]، أو أنه يُحمل على ما يرجع إلى مصالح الدنيا. والأول أقوى؛ لأن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى.وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ يرجع إلى أحوال الدنيا، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى، ثم أتبعه بقوله: ﴿فَهَدَى﴾، أي: كلّفه ودلَّه على الدين[6].

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب.
(2) سورة الحجر: (٢١).
(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٩/٣١).
(4) انظر: المصدر السابق (١٢٩/٣١).
(5) سورة البلد: (١٠).
(6)انظر:مفاتيح الغيب (١٢٩/٣١).

المبحث الثالث

تقرير النبوّات

جاء المطلب الثاني من مطالب هذه السورة في "تقرير النبوّات"، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى (٦) إلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾.

وقد أشارت الآيات إلى كمال حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لا يتم لهم إلا بأمورٍ أربعة: أولها: كمال القوة النظرية. وثانيها: كمال القوة العملية. وثالثها: قدرة النبي على تكميل القوة النظرية لغيره. ورابعها: قدرة النبي على تكميل القوة العملية لغيره[١].

أما الأمر الأول: فهو شرح صفة نفس النبي، وكيفية جوهر روحه في علومه وأخلاقه:

فالمعنى من قول الباري: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾: أنه تعالى يُقوِّي جوهر روحه ويكمِّلها، بحيث يصير نفسًا قدسية مشرَّفة بالعلوم الحقيقية والمعارف الإلهية، ويصير بحيث إذا عَرَفَ شيئًا فإنه لا ينساه[٢]. قال الإمام الجنيد: معنى ﴿فَلَا تَنْسَى﴾: "لا تترك العمل بما تضمن من أمرٍ ونهي"[٣]. وقد أعلم الله عزَّ وجل أنه سيجعل للنبي صلى الله عليه وسلم آية يتبيّن له بها الفضيلة بأن جبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي، وهو أميٌّ لا يكتب كتابًا ولا يقرؤه، ويقرئ أصحابه ولا ينسى شيئًا من ذلك، ولا يكرر عليه الشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤][٥].

وفي هذه الآية الكريمة مسألتان[٦]:

المسألة الأولى: قال أبو الحسن الواحدي في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ "أي: سنجعلك قارئًا، بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرأه". والمعنى: نجعلك قارئًا للقرآن تقرؤه فلا تنساه. قال مجاهد ومقاتل والكلبي: كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكْثَرَ تحريكَ لسانِه مخافةَ أن ينسى، وكان جبريل لا يفرغ مِن آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان، فقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، أي: سنعلِّمك

---

(١) انظر: معاني القرآن (٣١٥/٥)، المطالب العالية (١١٠/٨)، الأسرار المودعة ص(٣٤).
(٢) انظر: الأسرار المودعة ص (٣٤).
(٣) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥٧٧/٥).
(٤) سورة الحجر: (٩).
(٥) انظر: التفسير البسيط (٤٣٨/٢٣).
(٦) انظر: التفسير البسيط (٤٣٠/٢٣) و (٤٧٠/٤)، مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).

هذا القرآن حتى تحفظه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[2].

والمراد بالنسيان: هو النسيان الكلي الدائم، بحيث لا يعقبه التذكر بعده، ويجوز بأن يراد به: النسيان المتعارَف، الذي يعقبه الذكر بعده، وهو النسيان في الجملة على القلة والندرة، أي: فلا تنسى إلا ما شاء الله نسيانه، ثم لا يبقى المنسي منسيًّا دائمًا، بل يعقبه الذكر كما هو المفهوم من المقام. ويُؤيّد هذا المعنى: ما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه أنها نُسِخَت، فسأله، فقال عليه الصلاة والسلام: «نُسِّيتُهَا»[3]. وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلًا يقرأ في المسجد، فقال: «رَحِمَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»[4][5].

ومن هذا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن الكريم: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ، وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَهُدًى وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نُسِّيتُ، وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ، وَارْزُقْنِي تِلَاوَتَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ»[6]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»[7]. وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[8]، فدلَّ الكل على جواز طريان النسيان عليه، وإن لم يكن سهوه ونسيانه من قبيل سهو أمته ونسيانهم، فإنه أهل الحضور الدائم[9].

قال القاضي ابن عطية الأندلسي (٥٤٢هـ): "ونسيان النبي صلى الله عليه وسلم ممتنع فيما أُمِرَ بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلَّغه ووُعِيَ عنه، فالنسيان جائز على أن يتذكَّر بعد ذلك وعلى أن يسن، أو على النسخ، ثم أخبر تعالى إنه يعلم الجهر

---

(1) سورة طه: (١١٤).
(2) سورة القيامة: (١٦).
(3) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب المناقب، برقم: (٨١٨٣).
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب شهادة الأعمى وأمره ونكاحه وإنكاحه ومبايعته وقبوله في التأذين وغيره، وما يعرف بالأصوات، برقم: (٢٦٥٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيتها، برقم: (٧٨٨).
(5) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).
(6) قال العراقي في مغني الأسفار (٣٢٩/١): رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في فضائل القرآن، وأبو بكر ابن الضحاك في الشمائل، كلاهما من طريق أبي ذرٍّ الهروي، من رواية داود بن قيس معضلًا.
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، برقم: (٤٠١)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، برقم: (٥٧٢).
(8) سورة الكهف: (٢٤).
(9) انظر: لباب التأويل (٤١٨/٤)، روح البيان (٤٠٦/١٠).

من الأشياء، وما يخفى منها، وذلك لإحاطته بكل شيء علمًا، وبهذا يصح الخبر بأنه لا ينسَى شيئًا إلا ذكَّره الله تعالى به"[1].

ثم ذكر المفسرون في كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهًا[2]:

١- أن جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات، حتى تحفظه حفظًا لا تنساه.

٢- أنَّا نشرح صدرك ونقوِّي خاطرك، حتى تحفظ بالمرة الواحدة حفظًا لا تنساه.

٣- أنه تعالى لـمَّا أمره في أول السورة بالتسبيح، فكأنه تعالى قال: واظب على ذلك، ودُم عليه، فإنا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين، ويكون فيه ذكرك وذكر قومك، ونجمعه في قلبك، ونُيسِّرك لليسرى، وهو العمل به.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين[3]:

الأول: أنه صلى الله عليه وسلم كان رجلًا أميًّا، فحفظه لهذا الكتاب المطوّل من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة، خارق للعادة، فيكون معجزًا. لذلك دلَّت على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث تكفَّل المولى عزّ وجل بحفظ ما أوحاه إليه من القرآن فلا ينسَى منه شيئًا، وفي حفظه عليه الصلاة والسلام ما يوحى إليه دلالة رسالته؛ لأنه لم يكن يعرف الكتابة، ولا كان يتلو الكتب، ثم كان يقرأ جميع ما يُلْقى إليه بمرةٍ واحدة، مع ما كان مأمورًا ألَّا يحرِّك لسانه بشيءٍ مما يوحى إليه إلى أن يقضى إليه الوحي، ومَن كانت حالته ما ذكرنا، تعذّر عليه حفظ ما يلقى إليه بمرات -وإن كان ذلك لسانه، فكيف يضبطه بمرةٍ واحدة؟ فكان حفظه بالمرة الواحدة نوعًا من آيات نبوته.

الثاني: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمرٍ عجيبٍ غريبٍ مخالف للعادة سيقع في المستقبل، وقد وقع، فكان هذا إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا.

أما قوله: ﴿فَلَا تَنسَى﴾، فقال بعضهم: معناه: النهي، والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[4]، يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه، والقول المشهور: إن هذا خبر، والمعنى: سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان، كقولك: سأكسوك فلا تَعْرَى، أي: فتأمن العري[5].

واحتجَّ أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول: بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات في هذه الآية: منها: أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يصح ورود الأمر والنهي به، فلا بدَّ وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التي تنافي النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر، وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ. ومنها:

---

(1) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤٦٩/٥).

(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).

(3) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٣/١٠)، أنوار التنزيل (٣٠٦/٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٧٣/٢)، البحر المحيط (٤٥٦/١٠).

(4) سورة الأحزاب: (٦٧).

(5) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).

أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة، وهو أيضًا خلاف الأصل. ومنها: أنا إذا جعلناه خبرًا، كان معنى الآية: بشارة الله إياه بأني أجعلك بحيث لا تنساه؛ وإذا جعلناه نهيًا، كان معناه: أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان، وهي الدراسة والقراءة، وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول، ولأنه على خلاف قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[1][2].

والفائدة مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: بيان أنه لا ينفك عن السهو والنسيان في بعض الأوقات، وذلك بمقتضى الجبلة الإنسانية، والطينة البشرية[3].

قال بعضهم في تأويله: إلا ما شاء الله من ذلك؛ فإنه ينسيك ما أراد أن ينسيكه.

ولكن اعترض بعض المتكلمين على هذا التأويل، وبيّن أن الذي أوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم آيةً نبوته؛ فهو إذا قرأ ثم أنسي، فلمن طعن في رسالته أن يستقرئه تلك الآية، ولا يتهيَّأ له أن يقرأها إذا كان قد أنسي؛ فيجد في ذلك موضع الطعن عليه[4].

وقد رُوِيَ في بعض الأخبار أنه أنسي، ولكنها من أخبار الآحاد؛ فلا يجوز قطع الحكم بها؛ لأن خبر الآحاد يوجب علم العمل، ولا يوجب علم الشهادة، وهي في موضع الشهادة هاهنا، ولكن تأويله يُخرَّجُ على أوجهٍ ثلاثة[5]:

<u>الوجه الأول:</u> أن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا آمنين على أنفسهم بالعصمة عن الزلات التي لديها يخاف زوال ما أنعموا به، وإن ظهرت عصمتهم اليوم عندنا؛ ألا ترى إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم عند محاجَّة قومه قال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي﴾[6]، وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[7]، فخاف زوال ما أكرم به، وخشي أن يُبْتَلَى بما ابْتُلِي به أهل المعاصي حتى فزع إلى الدعاء. فثبت أنه لم يتبيَّن لهم حقيقة العصمة عن الوقوع في الزلات التي تزيل النعم، فكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمن عما يعقب الإنساء؛ بل قيل له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى. إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[8]. فثبت أنهم كانوا على خوفٍ ووَجَلٍ عن ارتكاب ما يسلب به الوحي وينسى.

---

(1) سورة القيامة: (١٦).
(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).
(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٠/٣١).
(4) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٣/١٠).
(5) انظر: المصدر السابق (٥٠٣/١٠).
(6) سورة الأنعام: (٨٠).
(7) سورة إبراهيم: (٣٥).
(8) سورة الزمر: (٦٥).

الوجه الثاني: أن يكون الاستثناء راجعًا إلى إنساء حكمه، وهو أن ينسخ حكمه حتى يترك فيصير كالمنسي؛ كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1]، أي: جعلهم كالشيء المنسي بما آيسهم من رحمته، لا أن يكون هناك حقيقة نسيان، فكذلك ما نسخ حكمه وترك، صار كالمنسي، وإن لم يكن فيه حقيقة نسيان؛ فيكون النسيان منصرفًا إلى حكم التلاوة، لا إلى عينها.

الوجه الثالث: أن يكون عليه الصلاة والسلام يذهب خاطره عن بعض ما يوحى إليه؛ إذا اشتغل فكره في أشياء أخر؛ فيصير الذي ذهب عن وهمه كأنه نسيه وإن كان يعود ذلك إليه عند إحضاره ذهنه، كما ترى المرء في الشاهد يذهب عن وهمه جميع ما في فاتحة الكتاب من الحروف إذا أعمل رؤيته في أشياء أخر؛ حتى يصير كالناسي لها وإن كان يعود إلى تذكّرها إذا رام أن يقرأها.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ففيه احتمالان[2]:

الاحتمال الأول: أن يقال: هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة، وأنه عليه الصلاة والسلام لم ينس بعد ذلك شيئًا، قال الكلبي: إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئًا، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أحد أمورٍ أربعة[3]:

١- التبرُّك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4]، وكأنه تعالى يقول: أنا مع أني عالمٌ بجميع المعلومات، وعالمٌ بعواقب الأمور على التفصيل، لا أخبر عن وقوع شيءٍ في المستقبل إلا مع هذه الكلمة، فأنتَ وأمّتك يا محمد أولى بها.

٢- أنه تعالى ما شاء أن ينسى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شيئًا، إلا أن المقصود مِن ذِكْرِ هذا الاستثناء: بيان أنه تعالى لو أراد ذلك لقدر عليه، كما قال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[5]، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك، وقال لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[6]، مع أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك ألبتَّة. وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء: أن الله تعالى يُعَرِّفه قدرةَ ربه، حتى يعلم أنَّ عدمَ النسيان مِن فضل الله جلَّ وعلا وإحسانه، لا من قوَّته.

٣- أنه تعالى لـمَّا ذكر هذا الاستثناء جوّز رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما ينزل عليه من الوحي -قليلًا كان أو كثيرًا- أن يكون ذلك هو المستثنى، فلا

---

(1) سورة التوبة: (٦٧).
(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١)، اللباب في علوم الكتاب (٢٧٩/٢٠)، السراج المنير (٥٢١/٤).
(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١).
(4) سورة الكهف: (٢٣-٢٤).
(5) سورة الإسراء: (٨٦).
(6) سورة الزمر: (٦٥).

جرم كان يبالغ في التثبُّت والتحفُّظ والتيقُّظ في جميع المواضع، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء: بقاءه عليه الصلاة والسلام على التيقُّظ في جميع الأحوال.

٤- أن يكون الغرض من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: نفي النسيان رأسًا، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء.

الاحتمال الثاني: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء في الحقيقة، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوهًا[١]:

١- أن يكون المعنى: إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكَّر بعد ذلك، فلا ينسى نسيانًا كليًّا دائمًا، فقد رُوِيَ أنه صلى الله عليه وسلم أسقط آيةً في قراءته في الصلاة، فحسب أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه أنها نُسِخَت، فسأله، فقال: «نُسِّيتُهَا»[٢].

٢- أن يكون المعنى: إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنساء هاهنا: نسخه، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[٣]، فيكون المعنى: إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به، فيصير ذلك سببًا لنسيانه، وزواله عن الصدور.

٣- أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: القلة والندرة، ويشترط: أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والسُّنن، فإنه لو نسي شيئًا من الواجبات ولم يتذكَّره، أدَّى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإنه غير جائز.

ثم قال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ مبيِّنًا أنه عالِمٌ بالمعلومات، محيطٌ بها، يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور، فلولا اتصافه بذلك لَمَا قدر على جعل روح النبي عالمًا بها، مُبَرّأً عن السهو والنسيان والغلط فيها. فهو سبحانه يعلم ما يجهر بعض لبعضٍ من الخلائق، أو ما يسرُّ بعض عن بعض، أو يعلم ما تطَّلع عليه الملائكة من أعمالهم، ويعلم ما يعزب عنهم، فعلمه فيما أسرَّ العبد كعلمه فيما أظهر وجهر به؛ فذكَّرهم هذا؛ ليكونوا متيقِّظين، فلا يخونون، ولا يجهرون إلا بالذي يحق عليهم؛ إذ الله تعالى حفيظٌ عليهم[٤].

ولـمَّا كان المراد بيان إحاطة علمه سبحانه وتعالى، وأن نسبة الجلي والخفي مِن جَهْره بالقرآن وترديده على قلبه سرًّا وغير ذلك إليه تعالى على حدٍّ سواء، وكان السياق للجلي، ذكرهما مصرحًا بكلٍّ منهما، مُقدِّمًا الجلي؛ لأن هذا مقامه، وذكره بوصفه معبرًا عنه بالاسم الدالِّ على إحاطة علمه به فقال: ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾، أي: ثابتٌ له هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار في الإقراء والقراءة وغيرهما. ولـمَّا ذكره باسمه ليدل على أنه يعلمه مطلقًا لا بقيد كونه جهرًا،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٢/٣١).
(٢) سبق تخريج هذه الرواية من قبل.
(٣) سورة البقرة: (١٠٦).
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٤/١٠)، تفسير أبي السعود (١٣٤/٩).

قال مصرحًا بذلك: ﴿وَمَا يَخْفَى﴾، أي: يتجدَّد خفاؤه من القراءة وغيرها على أي حالةٍ كان الإخفاء، فيدل على علمه به إذا جهر به بطريق الأولى[1].

وذكر العلماء في هذه الآية الكريمة وجهين[2]:

الأول: أن يكون المعنى: أنه سبحانه عالمٌ بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالمٌ بالسر الذي في قلبك وهو أنك تخاف النسيان، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه.

والثاني: أن يكون المعنى: فلا تنسى إلا ما شاء الله أنْ يُنْسَخ، فإنه أعْلَمُ بمصالح العبيد، فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ.

وفي قوله جلَّ وعلا: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾، بيانٌ لتكميل نفس النبي في القوة النظرية أولًا، ثم في القوة العملية ثانيًا، وذلك لأن الناس كلهم مشتركون في أصل القدرة على القبيح والحسن، والفجور والعفة، إلا أن فيهم مَن تكون العفة عليه أسهل، وطبعه إليها أميل. وبالمقابل: فإن منهم مَن يكون الفجور عليه أسهل، وطبعه إليه أميل، وبالتالي فتلك السهولة عبارة عن الصفة المسمَّاة بالخُلُق، فمَن كان سعيدًا طاهرًا تقيًّا نقيًّا، كانت نفسه موصوفة بخُلُق العفة والطهارة، ومَن كان شقيًّا، كان بالضدِّ مِن ذلك.

وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام -مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾[3]- للإيذان بقوة تمكينه صلى الله عليه وسلم من اليُسرى، والتصرف فيها بحيث صار ذلك مَلَكَة راسخة له، فكأنه صلى الله عليه وسلم جُبِلَ عليها، والمعنى: ونُوفِّقك توفيقًا مستمرًّا للطريقة اليُسرى، أي: التي هي أيسر وأسهل في كل بابٍ من أبواب الدين علمًا وتعليمًا واهتداءً وهداية، فيندرج فيه تيسير طريق تلقِّي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية، مما يتعلّق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام، وتكميل غيره[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ مسألتان:

المسألة الأولى: أنَّ "اليُسرى" هي أعمال الخير التي تؤدي إلى اليُسر؛ وللمفسِّرين فيه وجوهٌ خمسة[5]:

١- أن قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ معطوفٌ على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراضٌ، والتقدير: سنقرئك فلا تنسى، ونُوفِّقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر، يعني: في حفظ القرآن الكريم.

---

(1) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٩٦/٢١).
(2) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١).
(3) سورة طه: (٢٦).
(4) انظر: روح البيان (٤٠٧/١٠).
(5) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥٧٨/٥).

٢- اليُسرى: الجنة، والمعنى: نُيسِّرك للعمل المؤدي إليها. قال أبو علي الجبائي المعتزلي: "أي: نُيسِّر لك دخول الجنة"[١].

٣- نُهوِّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به.

٤- نُوفِّقك للشريعة، وهي الحنيفية السهلة السمحة.

٥- نذهب بك نحو الأمور المستحسنة في دنياك وأخراك من النصر والظفر، ورفعة الرسالة، وعلو المنزلة يوم القيامة، والرفعة في الجنة.

المسألة الثانية: إنما قال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ بنون التعظيم؛ لتكون عظمة المعطي دالة على عظمة العطاء، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٤]، ومن هنا دلَّت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحدٍ غيره، وكيف لا وقد كان صبيًّا لا أب له ولا أم له، نشأ في قومٍ جُهّال، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوةً للعالمين، وهاديًا للخَلْق أجمعين[٥].

الأمر الثاني من النبوَّة: الاشتغال بدعوة الخَلْق إلى طريق الحق:

وذلك لأن مَن كان كاملًا في قوّته النظرية والعملية، استطاع تكميل غيره. وفي قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أمرٌ لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه بدعوة الخَلْق إلى الحق، فإنه لَـمَّا صار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تامًّا بمقتضى قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾، أُمِرَ بأنْ يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين وهداية الجاهلين، ومَن كان كذلك كان فيَّاضًا للكمال، فكان تامًّا وفوق التمام[٦].

وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثًا إلى الكل، فيجب عليه أن يذكِّرهم، سواء نفعتهم الذكرى أو لم تنفعهم، فما المراد من تعليقه على الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾؟ والجواب: أن المعلّق على شيءٍ لا يلزم أن يكون عدمًا عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات، منها: هذه الآية، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[٧]، ومنها قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٨]، ومنها قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾[٩]، فإن القصر جائزٌ وإن لم يوجد الخوف، ومنها

---

(١) نقلًا عن الطبرسي في مجمع البيان في تفسير القرآن (٣٧٥/١٠).
(٢) سورة يوسف: (٢).
(٣) سورة الحجر: (٩).
(٤) سورة الكوثر: (١).
(٥) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥٧٨/٥).
(٦) انظر: مفاتيح الغيب (١٣١/٣١).
(٧) سورة النور: (٣٣).
(٨) سورة البقرة: (١٧٢).
(٩) سورة النساء: (١٠١).

قوله: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ﴾[1]، والرهن جائزٌ مع الكتابة؛ ومنها قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾[2]، والمراجعة جائزةٌ بدون هذا الظن[3].

السؤال الثاني: التعليق بالشرط إنما يحسن في حقِّ مَن يكون جاهلًا بالعواقب، أما علَّام الغيوب فكيف يليق به ذلك؟ والجواب: أنه رُوِيَ في الكتب أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام: "﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[4]، وأنا أشهد أنه لا يتذكَّر ولا يخشى"، فأمْرُ الدعوة والبعثة شيء، وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الأمور غيره، ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر[5].

ثم إنه تعالى لَـمَّا ذكر هذا المعنى على سبيل الإجمال، أردفه بالتفصيل في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾، وهو الأمر الثالث مِن النبوة، وذلك لأن الخَلْق عند سماع هذه الدعوة ينقسمون إلى قسمين: منهم مَن ينتفع بدعوة الأنبياء، ويقبلونها، وتُستكمل نفوسهم بها، ومنهم مَن لا ينتفع بها، ولا يقبلها، وهو المشار بقوله سبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾. وهذا الذي اجتنب قبول دعوة الأنبياء لا شكَّ أنه: ﴿يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، أي: يتعذَّب دائمًا سرمدًا في حالةٍ يتمنَّى عندها الموت، وكلما احترق وهلك، أُعيدَ إلى الحياة وعُذِّب، فلا يكون ميتًا مطلقًا، ولا حيًّا مطلقًا، وبمعنى آخر: ليس بحيٍّ حياة ينتفع بها، ولا هو بميِّتٍ فيستريح[6].

والمعنى من قوله عزَّ وجل: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ أي: يتَّعظ بها مَن يخشى الله تعالى أو المعاد، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[7]، أي: بالقرآن الكريم، وذلك أن الذي يحملهم على الإيمان بالآخرة: إيمانُهم بهذا الكتاب؛ لأن في القرآن تذكيرًا للآخرة، وأمرًا بالاستعداد لها؛ فلذلك خشيته تحمله على الاتعاظ بالذكرى والانتفاع بها، والخشية هي الخوف اللازم في القلوب[8].

وفي هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل[9]:

المسألة الأولى: أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام: منهم مَن قطع بصحته، ومنهم مَن جوّز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم

---

(1) سورة البقرة: (٢٨٣).
(2) سورة البقرة: (٢٣٠).
(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٢/٣١).
(4) سورة طه: (٤٤).
(5) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٣/٣١).
(6) انظر: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية ص (٦٨٠)، روح البيان (٤٠٩/١٠).
(7) سورة الأنعام: (٩٢).
(8) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٥/١٠).
(9) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٣/٣١)، اللباب في علوم الكتاب (٢٨٢/٢٠).

مَن أصرَّ على إنكاره وقطع بأنه لا يكون؛ فالقسمان الأولان الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف.

إذا عرفنا ذلك، ظهر أن الآية تحتمل تفسيرين[1]:

١- أن يقال: الذي يخشى، هو الذي يكون عارفًا بالله تعالى، وعارفًا بكمال قدرته وعلمه وحكمته، وذلك يقتضي كونه قاطعًا بصحة المعاد، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2]، فكأنه تعالى لـمَّا قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، بيَّن في هذه الآية مَن الذي تنفعه الذكرى؟ ولـمَّا كان الانتفاع بالذكرى مبنيًّا على حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحدٍ عليها إلا الله سبحانه، وَجَبَ على الرسول تعميم الدعوة تحصيلًا للمقصود، فإن المقصود تذكير مَن ينتفع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير.

٢- أن يقال: إن الخشية حاصلة للعاملين وللمتوقِّفين -غير المعاندين-، وأكثر الخَلْق متوقِفون غير معاندين، والمعاند فيهم قليل، فإذا ضمّ إلى المتوقِفين العارفون، كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين. ثم إن كثيرًا من المعاندين، إنما يعاندون باللسان، فأما المعاند في قلبه -بينه وبين نفسه- فهو في غاية الندرة والقلة. ثم إن الإنسان إذا سمع التخويف -بأنه يصلى النار الكبرى، وأنه لا يموت فيها ولا يحيى- انكسر قلبه، فلا بدَّ وأن يستمع؛ وينتفع أغلب الخَلْق في أغلب الأحوال، وأما ذلك المعرض فنادر، وتَرْكُ الخير الكثير لأجل الشر القليل شرٌّ كثير، فمن هذا الوجه كان قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ يوجب تعميم التذكير.

قال نظام الدين النيسابوري (٨٥٠هـ) معترضًا على الاحتمال الثاني: "قلتُ: هذا خلاف القرآن حيث قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[4]، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[5]؛ وخلاف الحديث الشريف حيث قال صلى الله عليه وسلم في بعث النار: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»[6]؛ وخلاف المعقول، فإنه لو سلِّم أن قسمين من الأقسام الثلاثة ينتفعان بالتذكير، وينضم إليه من القسم الثالث بعضٌ آخر، فقد لا يلزم أن يكون الثاني أقل من المجموع المفروض؛ لجواز اختلاف الأقسام، بل السبب في تعميم التذكير: انتفاع المنتفعين به، وهم أهل الخشية -أعني: العلماء بالله-، وإلزام الحجة لغيرهم"[7].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٣/٣١).
(٢) سورة فاطر: (٢٨).
(٣) سورة يوسف: (١٠٣).
(٤) سورة سبأ: (١٣).
(٥) سورة الأعراف: (١٧).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم: (٣٣٤٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، برقم: (٢٢٢).
(٧) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٦/٦).

المسألة الثانية: العلم إنما يُسمَّى تذكُّرًا إذا كان قد حصل العلم أولًا ثم نسيه، وهذه الحالة غير حاصلة للكفار، فكيف سمَّى الله تعالى ذلك بالتذكّر؟ وجوابه: أن لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلًا، ثم إنه زال بسبب التقليد والعناد، فلهذا أسماه الله تعالى بالتذكّر[1].

المسألة الثالثة: قيل: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: نزلت في عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه. قال أبو الحسن الماوردي (٤٥٠): "وقد يتذكَّر مَن يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علَّقها بالخشية دون الرجاء"[2]. وقيل: المعنى: عمِّم أنت بالتذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع مَن يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء.

وإنما سُمِّيَ الوعظ بالتذكير؛ لأنَّ حسن هذا الدين مركوزٌ في العقول، ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[3]، فكأن هذا العلم كان حاصلًا في نفسه بالقوة، ثم زال عنها بالعوائق والغواشي، وعند بعض العقلاء: أن النفوس قبل تعلّقها بالأبدان عالمة بما لها أن تعلم، إلا أنها نسيتها لاشتغالها بتدبير البدن، ومن هنا قال أفلاطون: لست أعلمكم ما كنتم تجهلون، ولكن أذكركم ما كنتم تعلمون[4].

فإن قيل: التذكير إنما يكون بشيءٍ قد عُلِم، وهؤلاء لم يزالوا كفارًا معاندين؟ فالجواب: أن ذلك لظهوره وقوة دليله، كأنه معلومٌ، لكنه يزول بسبب التقليد والعناد، فلذلك سُمِّيَ بالتذكير، والسين في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: "سوف"، و"سوف" من الله تعالى واجبٌ، كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: أن مَن خشي، فإنه يتذكَّر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التذكير والنظر[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ مسألتان[6]:

المسألة الأولى: قالوا: نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، ونحن نعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الثانية: لقائلٍ أن يقول: إن الله تعالى ذكر هاهنا قسمين: الذي يذَّكَّر ويخشى، والأشقى الذي يصلى النار الكبرى؛ لكن وجود الأشقى يستدعي وجود الشقي، فكيف حال هذا القسم؟

وجوابه: أن لفظة "الأشقى" لا تقتضي وجود الشقي؛ إذ قد يجري مثل هذا اللفظ من غير مشاركة، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[1][2].

---

(1) انظر: المصدر السابق (١٣٣/٣١).
(2) انظر: النكت والعيون (٢٥٤/٦).
(3) سورة الروم: (٣٠).
(4) انظر:غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٥/٦).
(5) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٣/٣١)، السراج المنير (٥٢٢/٤).
(6) انظر: التفسير البسيط (٤٣٢/٢٣)، مفاتيح الغيب (١٣٤/٣١)، اللباب في علوم الكتاب (٢٨٤/٢٠).

والمقصود من قوله: ﴿الْأَشْقَى﴾: الكافر على الإطلاق، وذلك أن الكافر أشقى من الفاسق؛ ولا يلزم من تخصيص ذكر الكافر بدخول النار أن لا يدخلها الفاسق؛ وسبب تخصيص الكافر بالذكر: أن الفاسق لم يتجنَّب التذكير بالكلية، فيكون القرآن قد سكت عن الشقي الذي هو أهل الفسق، ويحتمل أن يكون الأشقى بمعنى الشقي؛ كقوله:﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أي: هيّن، فيدخل فيه الفاسق؛ لأنه يجتنب بوجهٍ من الوجوه[٣]؛ وقد رُوِيَ عن أبي مسلم الأصفهاني المعتزلي (٣٢٢ه) أنه قال في الأشقى: "أي: أشقى العصاة، فإن للعاصين درجات في الشقاوة، فأعظمهم درجة فيها الذي كفر بالله وتوحيده، وعبد غيره"[٤].

وقوله تعالى: ﴿الْكُبْرَى﴾: اسم تفضيل؛ لأنه تأنيث "الأكبر"، والمفضل: هو ما في أسفل دركات جهنم من النار التي هي نصيب الكفار، كما قال تعالى:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٥]، والمفضل عليه: ما في الدركات التي فوقها، فإن لجهنم نيرانًا ودركات متفاضلة[٦].

وقد ذكر بعض المتكلمين في تفسير ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ وجوهًا خمسة[٧]:

١- قال الحسن البصري: "الكبرى: نار جهنم، والصغرى: نار الدنيا"، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَوْلَا أَنَّهَا أُطْفِئَتْ بِالْمَاءِ مَرَّتَيْنِ، مَا انْتَفَعْتُمْ بِهَا، وَإِنَّهَا لَتَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعِيدَهَا فِيهَا»[٨]. ويقال: إنها تستجير أن ترد إلى جهنم؛ يعني: تتعوَّذ منها.

٢- أن في الآخرة نيرانًا ودركات متفاضلة، كما أن في الدنيا ذنوبًا ومعاصي متفاضلة، وكما أن الكافر أشقى العصاة، كذلك يصلى أعظم النيران. قال عطاء: يريد العظيمة الفظيعة. قال مقاتل: لأنها أعظم وأشد حرًّا من نار الدنيا.

٣- أن النار الكبرى: هي النار السفلى، قاله الكلبي، ويعني به: أن نار تلك الطبقة التي هي الدرك الأسفل أعظم وأشد حرًّا. وهي تصيب الكفار على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٩].

٤- أن وَصْفَ النار بالكبرى؛ ليُعْلَمَ أن الحاجة إلى اتِّقائها أشد، وذلك من كبر الشأن.

---

(١) سورة الفرقان: (٢٤).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٤/٣١).
(٣) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٦/٦).
(٤) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن (٣٢٧/١٠).
(٥) سورة النساء: (١٤٥).
(٦) انظر: روح البيان (٤٠٩/١٠).
(٧) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٢/٢٤)، بحر العلوم (٥٧١/٣)، تفسير ابن فورك (٢٠١/٣)، التفسير البسيط (٤٣٢/٢٣)، مفاتيح الغيب (١٣٤/٣١).
(٨) أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، برقم: (٤٣١٨).
(٩) سورة النساء: (١٤٥).

٥- قال إسماعيل حقي الخلوتي (١١٢٧هـ): "الظاهر: أن المراد بالنار الكبرى: هو العذاب الأكبر في قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَالْأَكْبَرَ﴾[١]، وهو عذاب الآخرة، وأما العذاب الأصغر، فهو عذاب الدنيا وعذاب البرزخ، فإنه يصغر بالنسبة إلى عذاب الآخرة"[٢].

فإن قيل: إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يقتضي أن ثمة حالة غير الحياة والموت، وذلك غير معقول؟ فالجواب[٣]: أن الحياة والموت نقيضان لا واسطة بينهما حقيقة، وإنما يثبت هاهنا مجازًا، نحو قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[٤].

لذلك فإن للمفسِّرين فيقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أربعة أوجهٍ[٥]:

الوجه الأول: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال، كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[٦]. والعرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد: "لا هو حي ولا هو ميت"، فخاطبهم الله تعالى بالذي جرى به ذلك من كلامهم.

الوجه الثاني: أن نفس أحدهم في النار تصير في حلقه فلا تخرج فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا.

الوجه الثالث: لا يكون على صفة الحي الذي يرغب فيها إيثار الدنيا على الآخرة؛ فأراد العمل لها بدلًا من العمل للآخرة.

الوجه الرابع: لا تنقضي عنه أفعال الموت -وهي آلامها وأوجاعها-، بل يبقى في آلامها أبدًا، قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْكُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[٧]، أي: لا يُقضى عليه حتى يتخلَّص من أوجاعها؛ لأن الحياة التي ينتفع بها العبد في الدنيا هي التي ترتفع عنها آلام الموت وأوجاعه.

ثم إن هذه الآية قد جاءت للتفاوت الرتبي، فأشارت إلى أن خلوده أفظع من دخوله النار وَصَلْيه، وهذا مخصوصٌ بلا شكٍّ بالكفرة لا بعصاة المؤمنين[٨]، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمَّا أهْلُ النَّار الَّذِينَ

---

(١) سورة الغاشية: (٢٤).
(٢) انظر: روح البيان (٤٠٨/١٠).
(٣)انظر: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية ص (٦٨٠).
(٤) سورة إبراهيم: (١٧).
(٥) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٣/٢٤)، تفسير ابن فورك (٢٠٢/٣)، تأويلات أهل السنة (٥٠٥/١٠)، مفاتيح الغيب (١٣٥/٣١)، تفسير ابن كثير (٣٨٠/٨)، اللباب في علوم الكتاب (٢٨٤/٢٠).
(٦) سورة فاطر: (٣٦).
(٧) سورة إبراهيم: (١٧).
(٨) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٥٠/٨).

هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ -أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ- فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1].

وقد قال الله تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

وقد أشارت الآيات بعد ذلك إلى مراتب أحوال السعداء من أتباع الأنبياء، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "نزلت في عثمان رضي الله عنه، قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة مائلة في دار رجلٍ من الأنصار، إذا هبَّت الرياح أسقطت البسر والرطب في دار الأنصاري، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق، فشكاه الأنصاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى المنافق، وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: إن أخاك الأنصاري ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها؟ فقال: أبيع عاجلًا بآجل؟ لا أفعل، فذكروا أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أعطاه حائطًا من نخل بدل نخلته، ففيه نزلت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾، ونزلت في المنافق: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه[4].

وقد اختلف معنى التزكية عند المفسرين: فقال بعضهم: هي الطهارة عن أدناس الشرك والمعاصي والعقائد الفاسدة، وقولُ: لا إله إلا الله؛ هذا قول عطاء وعكرمة ورواية عن عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهم. وقال الحسن: مَن كان عمله زاكيًا. وعن قتادة: عمل صالحًا وكان ورعًا. وعن أبو الأحوص: رضح مِن ماله وأدَّى زكاة ماله. وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ تصدَّق ثم صلَّى، ثم يقرأ هذه الآية. وقال آخرون: هي صدقة الفطر، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أعطى صدقة الفطر[5].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[6] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ، وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ»[1]. وفي

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم: (١٨٥).
(2) سورة الزخرف: (٧٧).
(3) سورة فاطر: (٣٦).
(4) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٣/٢٤)، مفاتيح الغيب (١٣٥/٣١).
(5) انظر: الكشف والبيان (١٨٤/١٠)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٨٦/٦).
(6) قال عبد الله بن عباس: "يريد عثمان بن عفان رضي الله عنه". انظر: التفسير البسيط (٤٣٣/٢٣).

معنى الآية وجهان: الأول: أنه تعالى لَـمَّا ذكر وعيد مَن أعرض عن النظر والتأمل في دلائل الله تعالى، أتبعه بالوعد لمن تزكَّى وطهر مِن دنس الشرك. الثاني: وهو قول الزجاج: تَكَثَّرَ من التقوى؛ لأن معنى الزاكي: النامي الكثير، وهذا الوجه معتضدٌ بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢]، فقد أثبت الفلاح للمستجمعين لتلك الخصال، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣][٤].

وقد ذكر المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ وجوهًا ستة[٥]:

الوجه الأول: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلَّى له". وهذا التفسير متعيّنٌ، وذلك لأن مراتب أعمال المكلف ثلاثة: ١-إزالة العقائد الفاسدة عن القلب. ٢-استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه. ٣-الاشتغال بخدمته. فالمرتبة الأولى: هي المراد بالتزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾. وثانيها: هي المراد بقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾، فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة. وثالثها: الاشتغال بالخدمة والطاعة، وهي المراد بقوله: ﴿فَصَلَّى﴾، فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه، لا بدَّ وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثَرُ الخضوع والخشوع.

الوجه الثاني: قال بعض المفسرين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾، يعني: مَن تصدَّق قبل مروره إلى العيد، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، يعني: ثم صلَّى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام. وهذا قول عكرمة وأبي العالية وابن سيرين وابن عمر، ورُوِيَ ذلك مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وفيه إشكالٌ من وجهين: الأول: أن عادة الله تعالى في القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة، لا تقديم الزكاة على الصلاة. والثاني: قال أبو إسحاق الثعلبي: "هذه السورة مكية بالإجماع، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر"[٦]. وأجاب أبو الحسن الواحدي عنه: بأنه لا يمتنع أن يقال: لَـمَّا كان في معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون، أثنى على مَن فعل ذلك[٧].

الوجه الثالث: قال مقاتل بن سليمان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾، أي: تصدَّق مِن ماله، وذكر ربَّه بالتوحيد في الصلاة، فصلَّى له. والفرق بين هذا الوجه وما قبله: أن هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين، والوجه الأول ليس كذلك.

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧): "رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي، وهو متروكٌ".
(٢) سورة المؤمنون: (١-٢).
(٣) سورة البقرة: (٥).
(٤) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٥/٣١).
(٥) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٥/٣١)، روح البيان (٤٠٩/١٠).
(٦) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٨٥/١٠).
(٧) انظر: التفسير البسيط (٤٣٤/٢٣).

الوجه الرابع: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ ليس المراد منه: زكاة المال، بل زكاة الأعمال، أي: مَن تطهر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن اللفظ المعتاد أن يُقال في المال: زكى، ولا يُقال: تزكَّى؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾[1].

الوجه الخامس: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي: كبَّر في خروجه إلى العيد، وصلَّى صلاة العيد.

الوجه السادس: المعنى: وذكر اسم ربِّه في صلاته، ولا تكون صلاته كصلاة المنافقين؛ حيث يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا.

المبحث الرابع

تقرير أمر المعاد

سنتكلَّم في هذا المبحث عن المطلب الثالث من مطالب هذه السورة، وهو: تقرير أمر المعاد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧)﴾.

وهو بيانٌ تام وافٍ كامل في تقرير أمر المعاد، وتقريره ببيان أمرين:

الأمر الأول: أن اللَّذات الأخروية خيرٌ من اللَّذات الدنيوية، ويدل على صحته وجوهٌ أربعة[2]:

١- أن اللَّذات الروحانية أفضل من اللَّذات الجسمانية؛ لاشتراك الأولى فيها بين الإنسان والأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، واشتراك الثانية بين الناس والبهائم.

٢- أن اللَّذات الجسمانية لو كان فيها خير وسعادة، لكان كل ما كانت هذه الأشياء أكثر كانت السعادة والكمال أكثر، ومعلومٌ أنه ليس كذلك، لأنا لو فرضنا إنسانًا لا همَّ له إلا الأكل والشرب والجماع، وكان كل عمره مقصورًا على إصلاح ذلك كان منسوبًا إلى الخسة والدناءة، وأما إذا أعرض وبعد عن هذه الأحوال كان إلى الكمال الروحاني أقرب. فعلمنا أن اللَّذات الروحانية خير من الجسمانية.

٣- أن جوهر الروح أشرف من جوهر البدن، والابتهاج بمعرفة المولى عزّ وجل ومحبته أشرف من الابتهاج بالمطعوم والمنكوح.

٤- أن في عيش الدنيا عيوبًا كثيرة، وذلك كخوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك، وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب.

الأمر الثاني: أن الآخرة أبقى من الدنيا، ويدل على صحته وجوهٌ ثلاثة[3]:

١- أن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني.

---

(1) سورة فاطر: (١٨).

(2) انظر: بحر العلوم (٥٧٢/٣)، الأسرار المودعة ص (٤٥).

(3) انظر: مفاتيح الغيب (١٣٧/٣١)، الأسرار المودعة ص(٤٨).

٢- أن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية، والدنيا ليست كذلك، فالآخرة خيرٌ وأبقى.

٣- أن اللَّذات الجسمانية إنما تحصل حال الاشتغال بها، أما بعد ذلك فإن اللذة لا يبقى أثرها ألبتَّة، بل ربما انقلبت تلك اللَّذات آلامًا؛ وأما البهجة الحاصلة بالمعارف الإلهية والعلوم القدسية والأخلاق الفاضلة فإنها باقية دائمة، آمنة عن الزوال والانتقال والآلام.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منصرفًا إلى المنافقين والكفرة، لا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كانوا في الإيثار مختلفين؛ فمنهم مَن آثرها في أنه نظر في الدنيا وأعرض عن النظر في الآخرة وجحدها، ومنهم مَن كان أغلب سعيه لأمر الدنيا، ومنهم مَن كان يؤثر بعض أحوالها على الآخرة[١]. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الدنيا دارُ مَن لا دار له، ومالُ مَن لا مال له، ولها يُجمَع مَن لا عقل له"[٢].

وقرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: بمثناة فوقية بصيغة الخطاب، والخطاب موجّهٌ للمشركين كما تقدَّم، وقرأه أبو عمرو وحدَه: بالمثناة التحتية على طريقة الغيبة عائدًا إلى الأشقى الذي يصلى النار الكبرى. و﴿بَلْ﴾ هنا: عاطفة جملةٍ عطفًا صُوريًّا، فيجوز أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنّبين لها، إلى ذكر سبب إعراض المتجنّبين وهم الأشْقَون، بأنَّ السبب إيثارهم الحياة الدنيا، وذلك على قراءة أبي عمرو ظاهر، وأما على قراءة الجمهور فهو إضرابٌ عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى توبيخ أحد الفريقين -وهو الفريق الأشقى-، فالخطاب موجَّهٌ إليهم على طريقة الالتفات؛ لتجديد نشاط السامع؛ لكي لا تنقضي السورة كلها في الإخبار عنهم بطريق الغيبة[٣].

وبالمناسبة قال عرفجة الثقفي: "استقرأتُ ابن مسعود ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه، وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا؛ لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنَّا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل"[٤].

وقد أخبر تعالى في الآية الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، وسبب الإيثار حب العاجل والجهل ببقاء الآخرة وفضلها؛ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»، قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ

---

(١) انظر: تأويلات أهل السنة (٥٠٦/١٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٨٤/١٣)، برقم: (١٠١٥٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٨٩/٣٠).

(٤) أخرج هذه الرواية: الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٥/٢٤).

وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[1].

(1) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم: (٢٤٥٨).

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ): "فإنَّ إيثارَ الحياة الدنيا طبعٌ غالبٌ على الإنسان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ثم بيَّن أن الشرَّ قديمٌ في الطباع، وأن ذلك مذكورٌ في الكتب السالفة؛ فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى"[1].

(1) انظر: إحياء علوم الدين (٧٩/٣).

الخاتمة

وبعد أن تمَّ الفراغ من هذا البحث بحمد الله تعالى، نذكر أهم نتائجه فيما يلي:

١- ذكرت هذه السورة كبريات آيات العقائد الإسلامية، حيث تكلّمت عن الذات الإلهية، والأنبياء والرسل عليهم السلام، وذكرت انقسام المستمعين إلى مَن ينتفع بإرشاد الأنبياء، وإلى مَن لا ينتفع به، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين، ونبهت على أن خيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الحياة الدنيا.

٢- اشتملت هذه السورة على تنزيه الله تعالى، والإشارة إلى وحدانيته؛ وانفراده بخلق الإنسان، وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه؛ وعلى تأييد النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيته على تلقّي الوحي، وأن الله معطيه شريعة سمحة، وكتابًا يتذكَّر به أهل النفوس الزكية الذين يخشون ربهم، ويعرض عنه أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدنيا؛ وأن ما أوحي إليه يصدِّقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كله تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين.

٣- أنَّ الله تعالى أعلى وأجلّ من كل ما يصفه به الواصفون، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا.

٤- أنه كما يجب أن تُنزَّه ذات الباري تعالى عمَّا لا يليق من الأوصاف، فكذا الأسماء الدالة عليه تُحمل على معاني الكمال والجلال، وتُصان عن التأويلات الزائغة، وأن لا يذكر إلا على وجه التعظيم؛ تأدبًا بآداب الله جلَّ وعلا.

٥- أنَّ التسبيح المأمور به بالسورة يحتمل وجهين: الأول: أن لا يعامل الكفار معاملة يُقْدِمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغي. والثاني: أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي أسمائه، وفي أحكامه.

٦- أنَّ الأمر بالتسبيح في هذه السورة بشارة إجمالية للنبي صلى الله عليه وسلم بخيرٍ يحصل له، فهذا موقع البيان الصريح بوعده بأنه تعالى سيعصمه من نسيان ما يقرئه، فيُبَلِّغه كما أوحى إليه، ويحفظه من التفلُّت عليه.

٧- العلو لله تعالى: هو بمعنى علو المكانة والرفعة، وليس علو الجهة.

٨- في هذه السورة نوعان من الدلائل على وجود الصانع الحكيم: الأول: الاستدلال بخلقة الحيوان المركب من بدن ونفس، فبدن كل حيوانٍ مقدَّر بمقدارٍ معين، وهذا التقدير هو الخَلق، والبدن مركَّبٌ من أجزاءٍ حارة وباردة ورطبة ويابسة. والثاني: الاستدلال على وجود الصانع بأحوال النبات. ويعود السبب في تقديم الاستدلال بأحوال الحيوان على أحوال النبات في الآيات هو شرفه عليه؛ ولأن عجائب الأحوال في الحيوان أكثر، فكان أولى بالتقديم.

٩- أنَّ الباري جلَّ وعلا قدَّر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها،وجعل أجناس الأشياء وكذا أشخاص كل نوع بمقدارٍ معلوم، وكذا جعل مقدار كل شخص بمقدارٍ معلوم. وهذا كله إن دلَّ على شيء فإنما يدل على قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة وعظيم خَلقه.

١٠- الخَلق: عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية: عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأبدان، فالخَلق مقدَّمٌ على الهداية، ولهذا المعنى قدّم الله تعالى في هذه السورة الخَلق في الذكر على الهداية. والاستدلال على وجود الصانع بالخَلق أولًا ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن الكريم.

١١- أنَّ في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ إشارة إلى ما في بدن الحيوان من عجائب، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، إشارة إلى ما نفس الحيوان من غرائب. فنبّه سبحانه وتعالى بهذين الضابطين على ما لا نهاية له من العجائب والغرائب في خَلْقِه.

١٢- المرء يصل إلى وحدانية الرب ومعرفة الصانع بالنظر في الأشياء التي تحدث وتتغيَّر بأدنى نظرٍ وتأمل، ولا يصل إلى ذلك فيما يدوم إلا بلطائف الفكر، وفضل بصر، وزيادة تأمل.

١٣- أشارت بعض آيات السورة إلى كمال حال الأنبياء عليهم السلام، وذلك لا يتم لهم إلا بأمورٍ أربعة: كمال القوة النظرية، وكمال القوة العملية، وقدرة النبي على تكميل القوة النظرية لغيره، وقدرة النبي على تكميل القوة العملية لغيره.

١٤- أنَّ معنى آية: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾: أنه تعالى يُقوِّي جوهر روح النبي صلى الله عليه وسلم ويكمّلها، بحيث يصير نفسًا قدسية مشرّفة بالعلوم الحقيقية والمعارف الإلهية، ويصير بحيث إذا عَرَفَ شيئًا فإنه لا ينساه.

١٥- أنَّ نسيان النبي صلى الله عليه وسلم ممتنع فيما أُمِرَ بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلغه ووعي عنه، فالنسيان جائز على أن يتذكَّر بعد ذلك وعلى أن يسن، أو على النسخ. أما الفائدة مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾: فبيان أنه لا ينفك عن السهو والنسيان في بعض الأوقات، وذلك بمقتضى الجبلة الإنسانية، والطينة البشرية.

١٦- بيّن الله تعالى في السورة أنه عالِمٌ بالمعلومات، محيطٌ بها، يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور، فلولا اتصافه بذلك لَمَا قدر على جعل روح النبي عالمًا بها، مبرّأً عن السهو والنسيان والغلط فيها.

١٧- أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان رجلًا أميًّا، فحفظه لهذا الكتاب المطوَّل من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة، خارق للعادة، فيكون معجزًا. لذلك دلَّت على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث تكفّل المولى عزَّ وجل بحفظ ما أوحاه إليه من القرآن فلا ينسَى منه شيئًا.

١٨- أنَّ الناس عند سماع دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ينقسمون إلى قسمين: منهم مَن ينتفع بدعوته ويقبلها، ومنهم مَن لا ينتفع بها، ولا يقبلها، وهذا الذي اجتنب قبول الدعوة لا شكَّ أنه سيعذَّب في النار دائمًا سرمدًا،وسيكون في حالةٍ يتمنَّى عندها الموت، وكلما احترق وهلك أعيد إلى الحياة وعذّب، فلا يكون ميتًا مطلقًا، ولا حيًّا مطلقًا.

١٩- شملت هذه السورة الكريمة مراتب أعمال المكلف الثلاثة؛ وهي: ١-إزالة العقائد الفاسدة عن القلب. ٢-استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه. ٣-الاشتغال بخدمته. فالمرتبة الأولى: هي المراد بالتزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن

تَزَكَّى﴾. وثانيها: هي المراد بقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾، فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة. وثالثها: الاشتغال بالخدمة والطاعة، وهي المراد بقوله: ﴿فَصَلَّى﴾، فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله وكبريائه، لا بدَّ وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع.

٢٠- أنَّ الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام: منهم مَن قطع بصحته، ومنهم مَن جوّز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم مَن أصرَّ على إنكاره وقطع بأنه لا يكون، فالقسمان الأوَّلان تكون الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف.

٢١- أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منصرفًا إلى المنافقين والكفرة، لا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كانوا في الإيثار مختلفين؛ فمنهم مَن آثرها في أنه نظر في الدنيا وأعرض عن النظر في الآخرة وجحدها، ومنهم مَن كان أغلب سعيه لأمر الدنيا، ومنهم مَن كان يؤثر بعض أحوالها على الآخرة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع

-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية لنجم الدين الطوفي، تحقيق: محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م-١٤٢٦ه.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- الإيمان لابن منده العبدي، تحقيق: علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ه.

- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة الفاسي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، وحسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.

- تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

- تفسير ابن فورك الأصبهاني، تحقيق: علال عبد القادر بندويش، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

- التفسير البسيط لأبي الحسن الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

- تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين الإلبيري، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

-جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه

وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.
- رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض سور القرآن الكريم لفخر الدين الرازي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، دار ابن الجوزي، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه.
- روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي، دار الفكر، بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة.
- سنن ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- سنن أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- السنن الصغير لأبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- السنن الكبرى لأبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- السنن الكبرى لأحمد بن شعيب النسائي،تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- سنن محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي،القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- شعب الإيمان لأبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير ناصر الدين البيضاوي لشهاب الدين الخفاجي، دار صادر، بيروت.
- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني لأحمد بن إسماعيل الكوراني، تحقيق: محمد مصطفي كوكصو، الناشر: جامعة صاقريا، كلية العلوم الاجتماعية، تركيا، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة الكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب لشرف الدين الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي، تحقيق:محمد الطاهر بن عاشور،

دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- اللباب في علوم الكتاب لعمر بن علي النعماني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- لوامع البرهان وقواطع البيان في معاني القرآن لأبي الفضائل المعيني، تحقيق: سفر حسنوف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ه-٢٠١٤م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن للفضل بن الحسن الطبرسي، انتشارات ناصر خسرو، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ه-١٩٩٠م.
- مسند أبو بكر ابن أبي شيبة العبسي، تحقيق: عادل العزازي وأحمد المزيدي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- مسند أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون،مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- المطالب العالية من العلم الإلهي لفخر الدين الرازي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ه-١٩٨٧م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار لعبد الرحيم بن الحسين العراقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه لمكي بن أبي طالب القيسي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.